دراسات فى الإسلام
العدد السادس

# الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة

إبراهيم محمد إسماعيل





يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بوزارة الأوقاف

دراسات فى الإسلام

يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بوزارة الأوقاف

# الإسلام
## والمذاهب الاقتصادية المعاصرة

إبراهيم محمد إسماعيل

( ٦ )
السنة الأولى
١٥ من المحرم ١٣٨١ هـ
٢٨ من يونيه ١٩٦١ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

"إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

صدق الله العظيم

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين •
والصلاة والسلام على الرحمة المهداة • والنبى المصطفى محمد ابن عبد الله ، خاتم المرسلين ، وقدوة المشرعين •

وبعد ••

فان السر فى اختيارى هذا الموضوع مجالا للبحث ، ولتقديمه فى هذه الفترة انما يرجع الى عاملين مهمين : ــ

**أما أولهما فهو نوع من التجاوب لصدى الدعوة المخلصة التى بلورت موقفنا من الـــدول الكبرى وتضارب اتجاهاتها وسياساتها ــ فى صورة حيادية ، تنفر من الانحياز الى أى من تلك الجوانب الا تلبية لنداء الصالح الانسانى العام الذى يمليه ايمان بالواجب يقدم فى سبيل الحصول على حق الحرية والعدالة والمساواة •**

ولم يكن متوقعا أبدا أن يقابل هذا النداء بالاستسلام والقبول من هذه الدول الكبرى ، التى تتحكم فى مصير العالم فى هذا الزمان فقامت ببث الدعايات ، ونشر الأراجيف ، محاولة الوقوف فى وجه هذه الدعوة وصرف الانظار عنها بحجة أن تحقيق هـــذا من رابع

المستحيلات ، ولا يمكن لدولة ما أن تقف بعيدا عن السير فى ركاب واحدة من الكتلتين الكبيرتين المسيطرتين على العالم ، واللتين تقودانه فى هذه الآونة الى ما يحقق لكل منهما أحلاما وأمانى تسيطر على خيالات حفنة من الاستعماريين ، ولذا فواجب كل فرد - لينال رضى أى منهما - أن يتقبل ما تدين به من مبادىء ومثل وآراء ويتخلص من كل ماعدا ذلك غير آسف ولا نادم ٠

ولما كنا نحن -العرب - المعنيين بذلك ، كان علينا أن نناقش هذه الدعوى ممثلة فى بحث النظم والافكار التى يدعوننا الى اعتناقها والايمان بها ، ناظرين اليها من خلال واقعها العملى ونتائج تطبيقها ، ثم نقارنها بما يريدوننا أن نتخلى عنه ٠

وبهذا يمكن أن تصدر نداءاتنا عن وعى بها ، وثقة من صحتها وايمان بمؤازرتها للواقع ، ومساندتها اياه ٠

أما العامل الثانى : فيرجع الى رغبتى فى بيان تلك الحقيقة التى غابت عن الكثيرين أو تغاضوا هم عنها ٠

تلك هى « **توضيح القيمة الذاتية لمصدر التشريع الاسلامى** »

حقيقة ان قيمة هذا المصدر فى غنى عن التوضيح ، الا أن هناك من البذور الشريرة الكثير ، مما أنبت الاشواك فى سبيل باحثينا ، وكادت هذه الترهات تطغى على الحقيقة ، وتسير بنا فى تيارات جارفة ، تنسينا حقيقتنا ، وتمسخ صورتنا بعد أن تبدد عماد وجودنا ٠

**ان الله - رب الجميع ، والغنى عن الجميع ، والمستعلى على الجميع - يحدد الخير بما يكفل مصلحة الجميع ، ويخطط له الطريق**

**الميسر للجميع ، ويحدد الجزاء على فعله وتركه بما يناسب أثر هذا الخير فى صالح الجميع .**

فالله ليس صاحب غرض ، وليس واقعا تحت تأثير ما ، بل انه فوق ذلك كله يعلم طبائع البشر ونوازعهم ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء .

ولهذا فكل مايخططه من نظم وقوانين ، لايمكن بحال الا أن يطابق واقع هذه الطبيعة ، ويلائمها كل الملاءمة ، من فعل الخير ، ومن تجنب الضرر الذى نهى عنه .

وعلى العكس من ذلك «الانسان» حين يشرع ، أو يضع للحياة نظاما فهو محدود بالبيئة والوراثة وما يكتنفهما من مفارقات توجه الفرد وتقوده ، محدود بنوع الثقافة والمعرفة ، فكل انتاجه يسير فى الاطار الذى ترسمه له ثقافته تلك وتخطه معرفته .

واذا كان الانسان محدودا بهذه الظروف ، تنعكس فى سلوكه وتبدو واضحة جلية فى تفكيره ، تسير معه فى كل مراحل حياته ، فاذا شرع فهو انما يصدر فى تشريعه عن تلك المؤثرات ، ويترسمها فى كل خطوة من خطوات نظرياته ومبادئه .

**ولهذا كان الفارق شاسعا بين ما يأتى به الله وبين ما يأتى به الانسان** ولم يكن هذا الامر فى حاجة الى تبيين وتوضيح ، ولكن كثرة الابواق والدعايات **سترت الحقائق ، وأخفت البديهيات ، فخدع أناس بها ، وساروا وراءها يهتفون بها ويصفقون لها .**

وسوف أتناول فى بحثى هذا مذهبين وضعيين ، يعتبران فى

هذه الآونة أقوى المذاهب الوضعية ، وأكثرها أنصارا ، وأوسعهـا انتشارا (الرأسمالية والشيوعية) •

**لا لأقارنهما بالاسلام ، فهو أكرم وأسمى (بوضوحه وخلود مبادئه وغنائها بما يسعد المجتمع البشرى ، بل والكائنات عامة) من أن يقارن به أى مذهب مهما بدا لبعض العقول كماله وتحقيقهلسعادة الانسان •**

**وانما هو لون من العرض المبسط لازالة شبهات واهية وأوهام مسيطرة زكاها جهل بالاسلام ، وبعد عن واقعه التطبيقى ، وعلى هذا** فسوف أعرض كل مذهب على حدة ، ثم أذيله بالمآخذ التى تلاحظ فيه، معالجا هذه المآخذ بما يمحوهاأو يؤكدها حسبالأدلة والبراهين المستقاة من الواقع العملى •

والله أسأل الهداية والتوفيق •

**المؤلف**

# مـراحل البحث

## الرأسماليه :

نشأتها
النظرية العامة للنظام الرأسمالى الجديد
مبادىء النظام الراسمالى الجديد
الراسمالية فى مجال التطبيق العملى

## الشيوعيه :

نشأتها
النظرية العامة للنظام الشيوعى
مبادىء النظام الشيوعى
الشيوعية والعقل
الشيوعية فى مجال التطبيق العملى

## الاسلام :

نشاته
نظرية الاسلام العامة فى الاقتصاد
مبادىء الاقتصاد الاسلامى
شبهات

## خاتمه

# الرأسمالية

**نشأتها : هناك في أوروبا ، وفي القرن الخامس الميلادى اثر انقراض الامبراطورية الرومية الغربية ـ نشأ النظام « الاقطاعى » وآزرته الكنيسة المسيحية الناطقة باسم الاله ، دون أن يكون عندها في الحقيقة قانون الهى أو مبادىء ارشادية محكمة ، كانت حديثة العهد بأوربا ، فكان أن تعاونت مع هذا النظام الاقطاعي ، فألبست كل خطوة من خطواته ثوب الاوامر الالهية المقدسة .**

وفى الفترة بين قرني الرابع عشر والسادس عشر ـ فترة الانتقال من الدور المتوسط الى الدور الجديد من تاريخ أوربا ـ فى هذه الفترة ، انقشعت كل ناحية من نواحى الحياة الغربية ، وبدأ يتدرج مركز الثروة والقوة والمدنية، متحولا عن الولايات والاقطاعات الى المدن الكبيرة ، وكان على رأس هذه الحركة جماعة التجار والمرابون وأهل الحرف والصناعات البورجوازيون الذين انتفعوا من فرص الرقى هذه ، وكانوا يسكنون المدن والحواضر ، ويختلفون الى الخارج ، وكانوا أول المواجهين لتيار الثروة الوارد الى بلادهم من الخارج على الأقل مما دفعهم بكل قواه الى محاولة التغيير والرقى ، ولكن كيف ذلك والعقبة الكئود فى طريقهم تتمثل فى النظم **والقوانين الكنيسية التى ساندت الاقطاعيين .**

ولهذا نشبت المعركة طاحنة بين الفريقين ، كانت حربا شاملة لجميع ميادين الحياة الاجتماعية ، وكانت الجولة للنظام الجديد صاحب نظريات (الحرية والتجدد والمسامحة وسعة الصدر) فى كل شعبة

من شعب الحياة ، دينية أو فلسفية أو سياسية أو اقتصادية ٠٠ الخ هذه الشعب

أرادوا بهذه النظريات ازالة كل عقبة ، فى سبيل الرجل الحر المجدد ، فأصبحت الطبقتان على طرفى نقيض ، فحرية البرجوازية تذهب بهم الى غاية ، وضيق نظر الكنيسة الاقطاعية تسوقهم الى غاية أخرى ، فاستشعر كل منهم روح العداء ، وعملت الأثرة فى نفسيتهم عملها ٠٠ **طائفة تستغل اسم الله والدين والاخلاق فى سبيل دفاعها** عن العقائد الملفقة ٠ والحقوق القاهرة الغاشمة القديمة ، وأخرى تستغل الحرية والمسامحة فى زعزعة ما كان فى الديانة والاخلاق من **حقائق** ، فابتدعوا النظرية القائلة : بأن لا حاجة الى مراعاة المبادىء الخلقية فى الحصول على الاغراض والمصالح ٠

ثم نحتوا أصنام الاقليمية بأزاء الكنيسة الاقطاعية ، تلك البذرة الشريره اللعينة التى أثمرت الحروب والمناوءات فى هذا الحين، وأنشأوا لاول مرة فكرة جواز الربا الذى اجمع المفكرون منذ أقدم **العصور على تحريمه ومنعه ، ليس التوراة والقرآن فحسب ، بل كان أرسطو وافلاطون يحرمانه أيضا ، وقوانين اليونان والروم حظرته ونهت عنه ٠**

انتزع البرجوازيون هذه الحقوق من يد الكنيسة الاقطاعية باسم الحرية والمسامحة ولما تم لهم ذلك ، استأثروا بها دون سواهم وهم مازالوا فى نشوة النصر ٠

نسوا أن فى الشعب طبقة أخرى دونهم ذاقت الويلات والشدائد على يد الاقطاع فمن حقها اليوم أن تنال نصيبها من ثمرات هذا النظام الحر الجديد ، ولا أدرى أين ذهبت حريتهم وتسامحهم هكذا سريعا ، فمثلا عندما تأسست فى انجلترا حكومة على النظام

البرلمانى ، وانتقل نظام السيادة الحقيقية فى انجلترا من الشيوخ الى العوام استأثر البرجوازيون أصحاب الحرية والمسامحة وسعة الصدر ، استأثروا بالسلطة كلها ، ونسوا ـ عندما أبوا أن يعطوا الجمهور حقهم فى التصويت ـ نفس الحجج التى نالوا بها هم حق التصويت لانفسهم •

ارتفعت الدرجة الحرارية فى هذا الانقلاب على أثر الانقلاب الصناعى باختراع الآلة فى القرن الثامن عشر ، فقد اتسع نطاق الانتاج واعداد المواد الخام ، واستهلاك المصنوعات بشكل لم يكن ليخطر على بال • وكان أن تحينت الفرصة طبقت «البورثروا» التى كانت بيدها الصناعة والتجارة والثروة والسيطرة على العلم والادب•

تحينت الفرصة هذه الطبقة ، استأثرت بكل ماجاءت به الاختراعات العلمية الحديثة ، وأخذت توسع فى مناطق النفوذ والسيطرة ، تلك العقبة هى الثالوث المؤتلف من (ملوك الولايات القومية التى أنتجتها الحركة الثانية ، ويدعون التمتع بسلطة الهية موهوبة وأمراء النظام الاقطاعى وأغنياؤه ، ورجال الكنيسة القومية) فكان التباغض والتطاحن الدائم بين هاتين الطائفتين •

ثم تسلح مذهب الحرية والتجدد مرة ثانية بسلاح جديد هو : «التحرر من كل شىء اقتصاديا ، والاتجاه للنظام الجمهورى سياسيا والتحرر الفردى مدنيا واجتماعيا وأدبيا وأخلاقيا» •

بل انهم طالبوا بتضييق سلطة الحكومة سياسيا الى أقصى حد ممكن ، وتمتع الفرد بأوسع مايمكن من الحرية ، فالحكومة ماهى الا وكالة تعنى باقامة العدل بين الافراد ، وتمنعهم من تدخل بعضهم فى حدود بعض ، وتحافظ على الحرية الفردية •

كما طالبوا بأن تدور رحا الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفق جهود الافراد وأعمالهم وأفكارهم وآرائهم الفردية ، أما الحكومة فلا

حاجة الى تدخلها فى شئون الافراد، لا باعتبارها عاملة ، ولا باعتبارها زعيمة •

وهكذا غالى هؤلاء ، واستنفدوا كل جهد فى رفع كلمة الحرية والتسامح والاباحية الفردية •

كان هذا النظام الاقتصادى المبنى على النظرية المطلقة للاقتصـاد الحر ـ هو آخر تطورات تلك الحركة ، وهو ما اصطلح على تسميتـه بـ «النظام الرأسمالى الجديد» •

# النظرية العامة للنظام الرأسمالى الجديد

ان نظرية النظام الرأسمالى الجديد ، ترجع بجذورها الى نظرية «جون لوك» فى نشوء المجتمع وأصل الدولة ، وهى مجملة فى قولهم: **انه لايحق للكنيسة ولا للدولة ولا للمجتمع ان يقوم فى وجه سعى الفرد للارتقاء والانتفاع ، وانه ينبغى أن تكون الحرية التامة متيسرة لكل فرد من الافراد حتى يتمكن من استعمال قواه ومواهبه وكفاءاته حسب ميوله ويتقدم الى الامام حسب مايستطيع ويقدر ، بل لايمكن أن تسدى الى صالح المجتمع نفسه خدمة حقيقية ، الا بأن يتمتع كل فرد من أفراده بحرية غير محدودة فى كل شعبة من شعب الحياة ، وفى كل طريق من طرق العمل ، ومن كل قيد من القيود الرسمية والدينية والخلقية والقانونية والاجتماعية .**

فهى تقرن الملكية الخاصة بالحرية ، وتعتبرها جزء أساسيا منها ودليلا عليها ، بل سورا لها ، وذلك لان الانسان ولد فى حالة طبيعية ومعه حقوق أساسية هى (الحياة والحرية والملكية) ، والدولة ليست الا نتيجة لتعاقد جرى بين الناس لايجاد وسيلة جماعية لخدمة هذه الحقوق وحمايتها ، فكل سلطة تحيد عن ذلك العقد باطلة ، يحق للفرد الخروج عليها ، دفاعا عن حرياته وحقوقه الاصيلة .

# مبادىء النظام الرأسمالى الجديد

على ضوء هذه النظرة الى الفرد والمجتمع والحقوق ، استخلص الاقتصاديون الراسماليون مبادىء النظام الرأسمالى الجديد ، مجملة فى النقاط التالية : —

١ - **للفرد الحق فى الملكية الشخصية** : - وهذا الحق يتناول كل شىء . فيشمل مايستعمله وينتفع منه بنفسه كالملابس والأثاث والمراكب والماشية ، كما يشمل تلك الادوات والمرافق المنتجة لمختلف الاشياء الاستهلاكية ، كالماكينات والآلات والاراضى والمواد الخام .

٢ - **للفرد الحق فى حرية السعى** : - فللأفراد الحرية فى استعمال الوسائل التى يملكونها فى أى ميدان من ميادين العمل ، وما ينتجه ذلك لايكون الا لهم أو عليهم فلا ينبغى تقييدهم فى شىء من المنافع ، كما أنهم يتحملون الخسائر ، ولهم الحرية فى قبول الشروط والتبعات التى يرتضونها فى متاجرهم ومصانعهم ، وفى وضع اللوائح والنظم كما وأنهم أحرار فى توسيع الأنتاج وبيعه بما شاءوا من الثمن ، واستخدام ما شاءوا من عدد الرجال ، أجرة أومشاهرة .

وينبغى أن تتم المعاملات بين البائع والمشترى ، والأجير والمستأجر والخادم والسيد بالحرية الكاملة فيما يتعلق بالتجارة أو الصناعة ، ويجب أن ينفذ فيهم كل ما اتفقوا عليه فيما بينهم من الشروط .

٣ - **المنفعة الذاتية هى الدافع الى العمل** : - فالنظام الرأسمالى يعتمد فى انتاج المرافق الاستهلاكية وترقيتها على طمع الافراد فى منافعهم الشخصية، وهو أمر فطرى عليه الانسان يدفعه الى بذل السعى والجهد فى أعماله .

**يقول المحبذون للنظام الرأسمالى** :- «انه لا يمكن أن يوجد فى الحياة الانسانية دافع الى العمل أحسن من هذا ، بل ولا غيره ، فعلى قدر ما تقل من فرص المنفعة الذاتية من عمل الانسان ، تفتر همته ،

ويقل فيه جهده وسعيه، وأما اذا جعلت باب المنفعة مفتوحا،وأكثرت من فرص الرقى الذاتى ، ليكسب كل فرد ما يقدر على كسبه بسعيه وجهده ، فهناك تجد كل فرد يكد ويجتهد بنفسه ليأتى من العمل أكثر وأحسن مايستطيعه، وهكذا يزداد الانتاج بنفسه ويعلو ويرتفع مستواه وتستمر سائر الوسائل الممكنة تستعمل ، وتتسع للادوات المنتجة دائرة استهلاكها اتساعا على اتساعها ، ويكفل دافع المنفعة الشخصية وحده - لينال من الافراد للمصلحة الجماعية - خدمة لايمكن أن يسدوها اليها بطريقة أخرى غيرها •

٤ - **المنافسة بين الافراد** : - يقول أنصار النظام الرأسمالى : «ان هذه المنافسةهى التى تحول دون أن تتجاوز أثرة الافراد، وحبهم لذواتهم عن حدودها فى الاقتصاد الحر ، وهى التى تقيم بينهم الاتزان والاعتدال • وذلك ماقد ضمنت به الطبيعة بنفسها ، فانه اذا كان فى السوق الحرة عدد كثير من الذين ينتجون شيئا واحدا ، وكذلك من التجار والمشترين فلا بد أن يتعين لقيمة السلع معيار متناسب كما بينهم من المنافسة ، فلا تتجاوز منفعة الافراد عن حدودها المشروعة ولا تقل عنها الا فى أحوال شاذة مؤقتة •

وكذلك لايزال الاجراء والمستأجرون يقيمون لجعالاتهم ومشاهراتهم معيارا متزنا بأنفسهم ، بفضل المنافسة بينهم ، بشرط أن تكون هذه المنافسة بينهم حرة عامة غير مضيقة بنوع منالاحتكار

٥ - **الفرق بين الأجير والمستاجر** : - ان رجال كل مؤسسة تجارية فى ظل النظام الرأسمالى ينقسمون الى قسمين : -

( أ ) الملاك المنشئون للتجارة أو الصناعة ، والمديرون لها والمتحملون على عواتقهم مسئولية المنفعة والخسارة فى كل حال •

(ب) **المستخدمون** الذين لاعلاقة لهم بالمنفعة او الخسارة فى

قليل أو كثير ، وانما يصرفون أوقاتهم وجهودهم ومواهبهم فى هذا العمل نظير جعل معين •

يقول المدافعون عن هذا النظام :ـ « ان هذه الصورة للمعاملة تقضي بنفسهاأن منفعة التجارة أو الصناعةـ بموجب العدلوالنصفهـ انما يستحقها من يتحمل خسارتها ، ويعرض نفسه لتحمل الاخطار أما الاجير ، فلا ريب أنه يستحق جعيلته المشروعة ، التى تتعين فى السوق بالمعروف ، على حسب نوع عمله وكميته ، فلا لهذه الجعيلة ان تزيد بحجة أن التجارة أو الصناعة رابحة ولاتنقص بحجة الخسارة ان عمل الاجير يجعله مستحقا لأجرته المتعينة فى كل حال ، وهذا الاجر وهذه الجعالات ، لاتزيد ولا تنقص الا حسب ذلك القانون الفطرى الذى به تنخفض أو ترتفع قيمة كل السلع والبضائع فى السوق (قانون العرض والطلب) ، فآن قل المستأجرون ، وكثر الراغبون فى العمل فلا بد آن تنقص الاجرة بنفسها ، وان قل الأجراء وكثر المستأجرون ، فلا بد وأن تزيد الاجرة ولا بد أن يشعر العامل النشيط بالفارق بينه وبين الخامل ، فيستميله صاحب العمل الى نفسه ، ويعمل على كسب رضاه بالانعام عليه وترقيته ، وكذلك يجد العامل ويكد فى سبيل الاجادة فى عمله ، وترقيته على حسب ماينال من الاجرة فيكون مما يوده الملاك والمستأجرون أن ينفقوا قليلا ويربحوا كثيرا، فيميلون طبعا الى الاقلال فى الاجرة ، وبالجانب الآخر يكون مما يوده الاجراء والعمال أن تنسد حاجاتهم بأكثر رخاء ورفاهية ويرتفع مستوى معيشتهم شيئا فشيئا ، فهم دائما متطلعون الى الاستكثار من أجرتهم ، فمن الطبيعى أن ينشأ بهذا التضاد نوع من المشاكسة والمحاربة بين الاجراء والمستأجرين •• الا أن الاجورلايزال قدر منها يتعين بدافع الفطرة ويرضى به كل من الفريقين بالتفاعل بينهما ، وذلك كما يكون فى كل شأن من شئون الدنيا •

**٦ ـ التعويل على الاسباب الفطرية للارتقاء :** ـ يقولون : ـ انه

اذا كان الربح في التجارة كله يتوقف على قلة رأس المـــال وكثرة الانتاج ، فان مصلحة التاجر الذاتية نفسها تظل تضطره الى أن يختار — للاستكثار في انتاجه — أحدث وأحسن الطرق العلمية ويتعهـــد آلاته وماكيناته بالاصلاح والتنظيف ، ويقتني المواد الخام على كميـــة وافية بثمن قليل ، ولا ينفك يعمل فـــكره ورويته في ترقية طرق تجـــاراته وصناعته ، وهكذا يظـــل يتحقق كل ذلك ويتم بطبيعة الاقتصاد الحر ، وما يكتنفه من الملابسات المخصوصة من غير تدخل خارجي أو حيلة متصنع ، ولا تزال القوانين الفطرية تستخدم جهـــود الافراد ، ومساعي الطوائف الإنفرادية ، وتنتفع منها في الترقيـــة والرفاهية الجماعية مما لايمكن أن يتم بتدبير اجتماعي على الوجه المراد فان هذا تدبير فطري لا ينفك قائما بعمله من حيث لايشعر به أحد

٧ — **عدم تدخل الدولة :** — يقولون أيضا : — انه لايمكن أن يتم العمل على الفلاح والرخاء الاجتماعي على أحسن وجه حسب المبـــادىء المذكورة الا اذا كان الافراد أحرارا في أعمالهم من غير ما ضغط ولا تقييد ، وقد وضعت الفطرة في القوانين الاقتصادية تلاؤما بحيث أنها اذا عملت — جميعا — متحدة متعاونة ، انتجت خير الناس افرادا وجماعات أجمعين ، مع أنه لايعمل ويسعى كل فرد الا في منفعتـــه الذاتية ، كما تقدم بيان ذلك .

من الطبيعي أن الافراد كلما تراءى لهم جزاء أعمالهم وجهودهم في صورة المنافع الشاملة غير المحدودة ، بذلوا كل ما أوتوا من قواهم ومواهبهم ليقتنوا أكثر ما يقدرون على اقتنائه من الثروة والاموال ، مما يكفل للجميع أن يصنع لهم من المنتجات والمصنوعات أحســـنها وأكثرها ، واذا فصلت المنافسة العامة بين التجار والصناع والمهيئين للمواد الخام في السوق الحرة ، اعتدلت الاســـعار واتزنت الاثمـــان بنفسها ، وارتفع مستوى المنتجات ، وتبين بنفسه ما يحتاج اليـــه

المجتمع من الادوات ، فليس من عمل الدولة فى كل حال أن تتدخل فى العمل الفطرى لنمو الثروة وتخل توازنه ، وانما من عملها أن تولد أحوالا تحافظ على الحرية الفردية محافظة شديدة ، وعليها أن تحقق الامن ، وتقيم النظام والادارة وتحافظ على حقوق الملكية ، وتوفى بالعهود بقوة القانون ، وتحمى البلاد ومافيها من التجارات والصناعات من الحملات والصدمات والاخطار الخارجية ، ومن واجب الدولة أن تكون محققة للعدل فى البلاد مشرفة على أحوالها ، ساهرة على شئونها ، وليس من واجباتها أن تكون هى التاجر أو الصانع أو مالك الارض ، أو لا تدع التجار والصناع وملاك الاراضى أن يقوموا بأعمالهم كما يشاءون بتدخلها فى شئونهم .

# الرأسمالية فى مجال التطبيق العملى

كانت هذه النقاط اجمالا لمبادىء النظرية الرأسمالية ، وقد جعلها أصحابها مبادىء مسلمة فى العالم عامة ، لا يتطرق اليها الشك ، ولا يعتورها نقد ، وفى هذا الاعتقاد منهم ما فيه من المبالغة والمغالاة ... وقد تكفل الواقع بالرد عليهم ، وتوجيه النقد الى هذه المبادىء وذلك حينما انتقلت من مجال النظريات ، الى مجال التطبيق والتنفيذ ، وفيما يلى بعض هذه المآخذ التى أثبتها الواقع العملى :

**١ ـ ان القوانين الفطرية التى مازال البرجوازيون يستشهدون بها تاييدا للاقتصاد الحر ، لا تبلغ الى حد هذه المبالغة التى يصرون عليها • لا فى أقوالهم فحسب ، بل فى أعمالهم أيضا •**

يقول اللورد كينز ملاحظا ذلك : ان الدنيا لا تحكمها حكومة قوية من القوانين الخلقية والفطرية تحصل بها الموافقة بين مصلحه الافراد الذاتية ، ومصلحة المجتمع الجماعية بنفسها ، ولا يصح الاستنباط من مبادىء الاقتصاد أن الأثرة المتنورة دائما تسعى فى الفلاح والاسعاد الاجتماعى ، كما لا يصح القول بأن الاثرة دائما تكون متنورة ، فان الذى نراه فى كثير من الاحيان **أن الذين يبذلون مساعيهم لأغراضهم الذاتية بصفة فردية ، يكونون بالغين فى الضعف والسفاهة ، حتى انهم لا يكادون يقضون أغراضهم فضلا عن أن تتم على أيديهم الخدمة للمصلحة الجماعية خدمة لازمة أبدية •**

لقد شهدت أعمال الرأسماليين من طبقة البرجوازيين على أن اثرتهم لم تكن متنورة ، فقد اجتمعوا على مصالح الجمهور المستهلكين، والأجراء العاملين ، والحكومة المحققة للامن والرفاهية ، وتآمروا على أن يجتنذبوا لأنفسهم كل ما يأتى به الانقلاب الصناعى من المنافع

والارباح ، فجاءت مؤامراتهم هذه داحضة لأكبر دليل كانوا يقدمونه تأييدا للاقتصاد الحر ، القائل بأن الاتزان فى المنفعة من الجميع يقوم بنفسه بتفاعلها الفطرى فيما بينها ·

ومن أجل ذلك اضطر الاقتصادى الشهير آدم سميث ( وهو أكبر محام للاقتصاد الحر ) الى أن يقول : « قلما يجمع التجار وأهل الحرف والصناعات مجلس من المجالس لا ينتهى بمؤامرة بينهم أو قرار لرفع أسعار البضائع ، حتى لا تكاد تخلو الحفلات العامة التى يتسنى لهم الاجتماع فيها من اقتراف مثل هذه الجريمة الشنيعة » ·

**وهكذا تتضح النتائج السيئة ، والعواقب الموبقة ، عندما اتيحت الفرصة ، وطبق مبدأ الاقتصاد الحر ، وكيف أن الحرية هذه كانت أداة فتاكة فى أيدى الافراد الاقوياء يتآمرون باجتماعهم فى حماها على الضعفاء الكثيرين ، ويستغلون ضعفهم استغلالا فاحشا اشباعا لرغباتهم وميولهم الفردية ·**

٢ ـ فى دور الانقلاب الصناعى ، ظهر جليا مدى الخطأ فى المغالاة فى مبادىء الاقتصاد الحر ؛ حيث تغيرت طرق الانتاج من أساسها ، وحلت الآلة مكان القوى الانسانية والحيوانية ، فعادل ما ينتجه عشرة أفراد ما كان ينتجه ألوف الافراد ، وهذا يستلزم طبيعيا تشغيل القلة القليلة من الناس ، بينما يتعطل الكثيرون ·

فاذا ما جاءت بعد ذلك الدعوة المطلقة : بأن لا تتدخل الحكومة فى سعى الافراد ـ تلك الدعوة التى تنادى بها مبادىء ( الملكية الفردية وحرية السعى والمطالبة ) وتستلزمها ـ تبين الخطأ الفظيع فى مبناها ·

كيف يباح لفرد أو بضعة افراد أن ينشئوا مصنعا آليا كبيرا يغمر السوق بانتاجه لمجرد أنه يملك فى يديه الوسيلة الى ذلك ،

وفى نفس الوقت نتجاهل الالوف المؤلفة من النـاس الذين ينتجون هذا النوع يدويا فى مصانع صغيرة أو فى منازلهم ٠

لست أعنى بذلك أنه لا يصح تصنيع الآلة ، وانما أعنى تنظيم ذلك ، فيجب أن لا يكون اذن ، استعمال هذه الآلات اذنا مشـاعا هكذا ، بل ينبغى أن تفكر الحكومة قبل ذلك فى هؤلاء المنتجين الذين سيتعطلون ٠ من أين يعيشون ؟ وكيف ؟ ولكن مثل هـذا التفكير لم يحـدث فى ظلال الرأسـمالية ؛ فكانت تلك البطالة الجامحة ، وأصبحت كمســألة مستقلة فى المجتمع بصورة لم تعهد فى تاريخ الانسانية ، ولا يمكن لانسان تجاهل آثار البطالة فى الحياة ، انهـا ليست مسألة خاصة ، بل هى أساس كثير من مشـكلات الحيـاة ومعضلاتها ، مدنيا وخلقيا وماديا وروحانيـا ، ومن هنـا يبرز السؤال : **هل لفرد أو طائفة من الافراد أن يتصرفوا فى ملكيتهم على وجه تتولد منه مثل هذه المعضلات العديدة فى الحيـاة الاجتماعية ؟ وكيف يسوغ لانسان أن يحتج لهذا التصرف الظالم بانه من حـق الافراد المتازين الذين لا يزالون يسدون المعـروف الى المصـلحة الجماعية ، ويخدمونها خدمة دائمة بانفسهم ؟**

أما الرأى فى مثل هذه التصرفات الفردية ، بأن على الحكومة القومية أن تأذن بها اذنا عاما ثم تسكت عليها ، وتغمض عينيها عن الآثار التى تصيب حياة الامة كلها من جراء أعمال شرذمة قليـلة من الناس ، فهو رأى لا يقوم على أساس معقول ٠

**٣ ـ اتضح انه كلما نمت الراسـمالية فى دور الانقـلاب الصـناعى ، انتشر الفقـر ، وعم الضـيق ، زيادة عـلى البطالة ،** وذلك لان تعطيل هؤلاء الالوف من العمل اضطرهم أن يلجأوا سراعا الى هؤلاء الرأسماليين يلتمسون لديهم العمل والرزق بطريق الجعالة أو المشاهرة ٠

وهنا حيث يطبق المبدأ الرأسمالي الخامس ( الذى يفرق بين الأجير والمستأجر ) ينحط أجر هؤلاء الخاضعين لقانون العرض والطلب ، بل ويفقدون كل احساس بانسانيتهم ؛ فهم فى غاية الاستسلام لكل ما يفرضه الرأسماليون عليهم من قيود وقوانين ٠

ان أحدا منهم لا يفكر فى معارضة شيء من ذلك ؛ لسبب بسيط جدا ، وهو أن هناك الالوف من المتعطلين يغبطونه على عمله هذا ، وهم على أتم استعداد أن يحلوا محله ٠

يجب اذن أن يؤمن بأنه أسعد بكثير من غيره ٠

ويثبت لدينا خطأ استدلال البرجوازيين فى تأييد مبداهم القائل بأن الاجور العادلة المتزنة تستقيم بنفسها فى المنافسة العامه بما يكون بين الاجير والمستأجر من التفاعل والأخذ والرد ؛ وبهذا يتبين أن هذا المبدأ قد فقد العمومية ، ولا يمكن تطبيقه الا من طرف واحد ، هو الرأسمالى ، دون الخضوع لمساومة الطرف الآخر ، انه مستعد لقبول كل ما يشترط عليه فى هذا السبيل الضيق ، بين العمل المضنى ساعات طويلة مقابل أجر زهيد أشبه ما يكون بالانعام ، مما اضطرهم الى سكنى البيوت المظلمة الضيقة ، فساءت صحتهم ، وانحطت عقلياتهم ، واضمحلت أخلاقهم ، وأزالت الاثرة من نفوسهم كل معانى الانسانية ، والمواساة والمودة من قلوب الآباء والابناء والاخوان ، بل ان الآباء أحسوا بثقل الابناء والنساء عليهم ، حتى لم تبق ناحية من نواحى الحياة سليمة من الآثار السيئة لهذا الاقتصاد الحر الخاطيء المتطرف ٠

**٤ ـ أهمل الرأسماليون طرق التجارة والصناعة الفطرية ـ التى تظاهروا بالاعتزاز بها ـ** فاصطنعوا طرقا تباين المصلحة الجماعية ، وترتفع بها الاسعار ارتفاعا غير طبيعى ، بل ويبطؤ سير الانتاج نحو الرقى ٠٠٠ كانت لهم أساليب كثيرة : فتارة يشترون

البضائع الموجودة فى السوق ـ معتمدين على ثرائهم ـ ويختزنونها لديهم حتى تنعدم من السوق ويكثر طلبها ، وهكذا يتحكمون فى رفع الاسعار على وجه غير طبيعى •

وتارة يحرقون البضائع المنتجة ، أو يقذفونها الى البحار ، خشية أن تغمر الاسواق كميات كبيرة منها ، مما يتسبب فى خفض الاسعار •

وطورا آخر يعمدون الى التوسط بين المنتج الاصلى والمستهلك ، فيتبايعون السلعة فيما بينهم ، واحدا بعد واحد ، معتمدين على ما لهم لدى المصارف من أموال وما يملكون من مواصلات سريعة ، وبهذا يرتفع السعر بما يناله كل واحد من نفع دون أن يقوموا بأى خدمة انتاجية أو اصلاحية ، بل ولا حتى نقل البضائع وهذا ما يدور فى أعمال « بورصة العقود » •

وحينا آخر يرصدون جهودهم وأموالهم فى انتاج الكماليات ، ثم بواسطة الدعاية والاعلان يرغبون فيها الناس الذين لم يستكملوا بعد ضرورياتهم ، وبعد فترة يمكنهم أن يوهموهم بأن هذه السلعة غدت ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها ، وما ذلك الا لان انتاج هذه الكماليات أجلب للربح والمنفعة بينما يهملون فى انتاج الضروريات ، لأنها أقل ربحا •

**ويأتى فى قمة هذه الاساليب استعمار الاقطار الضعيفة لأجل مصالحهم فيقسمونها الى دوائر نفوذ ، كل يستغل منطقته ، ويجعل من شعبها آلة لقضاء مآربه** ، وحتى يضمن سلامة عمله يجعلونهم فى تناحر مستمر ، وتشاحن دائم ، حتى لا تتجه اليه أنظارهم : فيتنبهون اليه وهو يسرقهم • ونحن المصريين ـ وقد ذقنا مرارة الاستعمار ـ نلمس هذا الاسلوب بالذات ونحسه •

**٥ ـ تبيح الحرية للراسماليين أن يخطوا بعد ذلك خطوات ، مبتعدين عن كل النظم فى شتى العصور ؛ فيبيحون للأفراد اكتناز الاموال لاستثمارها بطريق الربا ، هذا الطريق الذى حاربه المفكرون من أقدم العصور ، فلم ينفرد بذلك التوراة والقرآن ، وانما كان قبل ذلك بقرون ، ارسطو وأفلاطون ، وقد اعتبرته أكثر مجتمعات العالم سيئة بغيضة . ولكن هؤلاء الراسماليين يغضون النظر عن اعتبارات المجتمعات والديانات السماوية ، ويضربون بآرائهم عرض الحائط ما دام ذلك سيعود عليهم بالربح الوفير .**

انهم عبيد المنفعة الفردية ، لا رواد الاصلاح الاجتماعى ـ كما زعموا ـ وبهذا صار الربا الصورة الوحيدة المشروعة للتجارة والنظم المالية ، ثم سنوا قوانين البلاد على نمط يضمن مصلحة الملى دون المدين ، وهكذا غدا أسعد الناس من جمع المال وكنزه بأية وسيلة كانت ، أما من سواهم فلا يقام لهم وزن ( مفكرا كان أو مخترعا أو مشرعا ) فكل منهم معرض للخسارة أو الربح ، فهم دائمو التفكير والقلق النفسى ، أما هذا الفرد الذى يقرض ماله بالربا فانه يجلس فى بيته هادئا مطمئنا ؛ لأن ربحه مضمون محدد ، لا تعنيه المثل العليا ولا الأحاسيس الانسانية فى شىء . له مال وربح لابد من تحصيله ولو كان فى ذلك القضاء المبرم على المدين .

والطامة الكبرى أن خطره يتعدى الافراد الى الحكومة التى تستدين منه لتنشىء الطرق والسكك الحديدية وما الى ذلك ، ثم تلتفت الى كل واحد من أهالى البلاد تجبى منهم الضرائب وفاء بدينها . وهكذا يظل داء فى جسم الأمة حكومة وشعبا ، يأتى على الاخضر واليابس ... والعجيب أنه ان تعرضت الامة لحرب من الحروب فقد لا تبالى بمن قتل أو جرح أو نكب فى بيته ، أو اصيب فى أبيه أو ابنه أو اللائى اصبن فى ازواجهن من النساء ؛ فان هؤلاء جميعا قد تتخلى عن الوفاء بحقهم خزانة الدولة بسهولة ،

أما الذين أقرضوا الدولة ــ وهم من أبنــاء الامة ــ فلا تزال الخزانة تؤدي اليهم رباهم الى مئات السنين ، وقد يضطر أولئك الذين كانوا قد ضحوا بأنفسهم فى تلك الحرب الى الاكتتاب مع غــيرهم ، أداء لهذا الربا ٠

وهكذا يتكشف لنا هذا النظام المعتمد على الربا عن ظلم وحيف يقع بالعاملين الحقيقيين ، والمنتجين فى الدولة ، وذلك لصالح فئة من الرأسماليين الذين لا تهمهم سعادة سواهم ولا رفاهيته ٠

لقد غدا المجتمع شعبا وحكومة خادما لهؤلاء الطغمة من السادة الرأسماليين لما فى أيديهم من مال وما أعطاهم القانون من حقوق ٠

**٦ ــ هذا ، وقد ولدت الاثرة والغش فى النفوس أخلاقا لم يعد بعدها من واجب أحد أن يقيل لأحد عثارا** ، وأى مجتمع هذا الذى يحس فيه أفراده بالهوة الكبيرة بين بعضهم البعض ، وأنه لا يوجد أى رابط يربط بين عناصر الامة ٠

ان مثل هذا المجتمع بطبقاته المتفاوتة المتباغضة ، لا يقــر له قرار ، وان حدث فانما هو نتيجة الكبت والحاجة ، وهــذا لابد وأن يولد فى يوم ما ، انفجاراً يطيح باستقرار المجتمع ، هذا الاستقرار المصطنع ٠

**٧ ــ لقد كانت ظلمة التفكير المادى معتمة ، فطغت على عقــول الرأســماليين ، فالحقوا بانفسهم وبمجتمعهم الكســاد من حيث لا يعلمون ؛ انهم يقولون** : بأن سعى الافراد لمنافعهم الشخصية فى الاقتصاد الحر لا يزال بنفسه يهيىء الاســـباب لرقى الوســائل والذرائع وزيادة الانتاج ، ولكنهم تناسوا أن المجتمع الغاص بملايين المتعطلين وذوى الكسب المحدود البســيط ، هؤلاء لا يمكنهم شراء البضائع التى تفيض بها الحوانيت والمتاجر ، وبالتــالى ســتصاب

بالكساد الذى يستلزم توقف المصانع والمزيد من المتعطلين ، والمزيد من الكساد • وهكذا اما أن يتوقف الانتـــاج تماما ، واما أن يبحث كل عن منطقة نفوذ فى البلاد المتأخرة يوزع فيها انتاجه ، ومن هنا يشتد التطاحن وتتوالد الحروب •

٨ ـ ثم أمامنا هؤلاء الرأسماليون القابعـون فى بيوتهم ، دون عناء جسمانى أو عقلى ـ صحة ووقت ومال ـ على اية حال ينتظر أن يكون أمثال هؤلاء ؟ وفى مقابلتهم ملايين الصعاليك ، يتنمرون لرؤية القرش ، ويسيل لعابهم • لا شك أن الفئة الثانية معدة اعدادا كاملا لتقبل كل ما يريد هؤلاء الأسياد الرأسماليون ـ اشـباع شـــهوة جامحة ، وتملق ونفاق •

**وهكذا تخطط الرأسمالية بمبادئها مجتمعها الذى تعيش فيه ، مجتمعا فاسدا من كل ناحية ، أغنياؤه مستغلون ، وفقراؤه عبيـــد مسترقون ، لا تكامل فيه ولا تساند بـل ولا تعاطف ، مبدأ كل ـ نفسى • نفسى •**

٩ ـ زد على ذلك أن الفكر فى ظلال الاقتصاد الحر ، قد أصبح هو الآخر بلوثة •

ان المجتمع ـ كما اتضح لنا ـ يئن تحت وطأة المشكلات المتلاحقة النابعة من فساد هذا النظام ، ولهذا تتجه الانظار الى المفكرين لايجاد حل لتلك المشكلات ، ولكن هؤلاء يزورون الحقائق لصالح الرأسماليين مجاملة لهم ، أو خوفا من بطشهم فيرجعون المشكلة الى أسباب محلية خاصة ، ويغفلون أسبابها الحقيقية ، ولا يرجعونها الى أسبابهـــــا الرئيسية المتصلة مباشرة بالرأسمالية ، فيتلمسون لها الحـــلول المفتعلة غير الواقعية • وهكذا يدورون بالشعب فى حلقـــة مفرغة بغية البحث عن طرفيها فتنبت الشكوك فى نفوس الامة • ويستشرى القلق وغير ذلك من أمراض المجتمع الفتاكة •

وبعد فهل ياترى يمكن أن تتحقق للجماعة خدمات من نفسها اذا ما ترك الافراد وشأنهم يعملون لمصالحهم الذاتية فى حرية مطلقة؟

لقد أثبت هؤلاء الرأسماليون أن الاثرة الحرة قلما تكون عادلة ، لا سيما اذ تركزت فى يديها القوة الاقتصادية والسياسية وكانت هى واضعة القانون ، انها حينئذ لا تفكر الا فى المصلحة الفردية فحسب.

ولن أجد وصفا يصور لنا المجتمع الرأسمالى أبلغ مما جاء على لسان الرئيس الامريكى جون كنيدى فى كتاب «استراتيجية السلام» الذى ضمنه عددا من خطبه وبياناته التى تناول فيها المشاكل الامريكية والمشاكل العالمية .

يقول جون كنيدى :ـ « **ان واحدا من كل أثنين من الامريكين غير صالح جسمانيا ومعنويا لاداء الخدمة العسكرية .. الامر الذى يضطر عددا كبيرا جدا الى العودة لديارهم بعد الالتحاق بالخدمة.!**

« ولقد أظهرت الاحصائيات الخاصة بأسطولنا أنه يوجد فى السجون التابعة لها عدد من المسجونين يفوق جميع الفرق النرويجية ، والفرق الدانمركية مجتمعة . وأن عدد الذين حكم عليهم لتركهم الخدمة يكفى لتكوين فرقة كاملة لحمل الطائرات !!.

« ونحن نتساءل :ـ ماذا حل بالبلاد ؟؟!

« **ان نسبة الاجرام .. والطلاق .. والامراض العصبية ترتفع.. بينما لم تصل البلاد من قبل الى هذه النسبة المرتفعة .. رغم ارتفاع مستوى المعيشة التى نتمتع بها !!**

« اننى أخشى أن نفتقد ما هو أصلب عودا فينا .. وهو روح القيادة المتشبعة بحب الحرية ، والشعور بالمسئولية .. وأن نفتقد أيضا رمز الواجب والكرامة والوطن !!

« **ولقد وصلنا الى درجة الاعتقاد باننا لسنا فى حاجة الى تلك المشاعر النبيلة !! »**

# الشيوعية

**نشأتها :** ـ هذا المذهب ليس وليد العصر الحديث ، ولكن هى فكرة سادت عقول كثير من الفلاسفة القدماء • ففى عام ٤٠٠ ـ ق.م تقريبا خرج أفلاطون على العـالم بمدينته التى أقامها على شيوعية المـال والنساء • وفى القرن الثالث الميـلادى قام «مزدك» فى بلاد فارس يدعو الى شيوعية المال والنساء أيضا مع اختلافات فى التفاصيل لا تعنينا فى شىء هنا • وتلاه كثيرون يدعون الى نفس تلك الدعوة ، اشتهر من بينهم جماعة القرامطة ، ولقد غالت تلك الجماعة ، فكانت تشترط على من ينضم اليها أن يجعل امرأته حلالا مباحا للجميع • ثم انتقلت الدعوة الى شمال ايران وجنوب القوقاز حتى أن بعض الافراد ثاروا على الحكام ، ولبسوا الملابس الحمراء اشارة الى التحدى والعناد • ثم ظهر فى روسيا حركة شـبيهة بحركة « مزدك » أطلق عليهـا « النهليستيه » وكانت تقول :ـ يجب أن يوجد طراز من الشباب يخـرج على العرف والمعتقدات العامة ويسخر من جميـع التقاليد الموروثة ، ويحاول أن يغير مظاهر الحياة العادية حتى فى أتفه الشئون، فيطلق الفتيان شعورهم ، ويقص الفتيات شعورهن» •

وكانت هذه النزعة ترى فى التقاليد القديمة ، كالدين والأسرة والملكية الخاصة والادارة المركزية عقبات يجب محوها وازالتها •

وفى أوائل القرن التاسع عشر ظهر كثير من دعاه الاشتـراكية أمثال روبرت أوين ، وبلان ، وسـان سيمـون ، الا أن مصيرهم كسابقيهم كان الفشل • حتى كان عام ١٨٤٧ حيث خـرج كارل

ماركس على العالم بكتاب ردد فيه نفس اللحن القديم الا أنه ادعى قيامه على أسس علمية سليمة ٠

والباحث فى هذه الفكرة ، وكيف أنها ظلت تراود نفوس الكثيرين عصرا بعد عصر ، فكلما بادت عادت الى الظهور من جديد ، يحس بأن هناك من خفى الاسباب ماهو جدير بنفخ روح الحياة فيها كلما خبت جذوتها ، وانى لا أعتقد أن سبب ظهورها قبل الميلاد له علاقات وطيدة فى القرن الثالث الميلادى وما بعده الى عصرنا هذا الحديث ٠

ان مزدك ما دفعه الى تلك الدعوة فى القرن الثالث الميلادى الاسوء توزيع الملكية بين أفراد مجتمعة ، حيث وجد افرادا يملكون الكثير ، وآخرين كثيرين لا يملكون شيئا ، فنهض يدعو الى مبدئه هذا ، عله يصل الى جعل المال ملكا للجميع ٠

وهكذا تتابع من بعده المفكرون ، الا أن نصيبهم كان الفشل ، الى أن قام كارل ماركس بدعوته فى منتصف القرن التاسع عشر ، تلك الدعوة التى نالت نجاحا كبيرا فيما بعد ٠٠ الا أنه لم يكن موضع دهشة وغرابة ، لأنه ليس نجاحا ذاتيا ينبع من ذات الفكرة ، وانما هو النجاح المؤقت الذى تأتى به ظروف معينة ، ومناسبات خاصة ثم هو لا يلبث أن يزايلها ، حين تزايلها هذه الظروف وتلك المناسبات ٠

لقد كان قيام هذه الدعوة بعد انتصار الرأسمالية على الاقطاع ، فلم يكن الاقطاع المريض على استعداد لخوض حرب مع دعوة فتية يطول فيها المدى ، فكان أسرع الى الاستسلام ٠

ثم ان النظم الرأسمالية كانت تمنى الشعوب الكادحة ٠والأفراد العاملين بالامانى العذاب ، وحينما تملكت كل ذلك نسيت كل ذلك ، وأصبحت أشد بلاء من سابقتها ( الاقطاع ) كما تبين فى كلامنا على الرأسمالية ٠

وأيضا فقد كان هذا المذهب (الشيوعية) مجموعة من الافكار ملأت الفراغ الذى نشأ من انهيار الدين ، نتيجة لازدياد تحول الفكر الى الاهتمام بالامور الدينوية خلال الثلاثة قرون المـــاضية ، مخدوعا بمظاهر الحياة الجديدة ، مفتونا بما تكشف له من معارف جديدة .

كل هذه العوامل مجتمعة ، قد أثرت في نمو المذهب الشيوعى ورواجه ، اذ لكل عامل منها مضاعفاته لدى طائفة خاصة من الناس، وما هـــذا التجمع من الجمهور المختلف المنازع والمشارب الا نتيجة لهذه العوامل المختلفة .

وبعد وفاة ماركس قام بالدعوة الى هذا المذهب (لينين) وتجمع حوله بعض شباب الروسيا ، وكون هؤلاء الشبـــاب نواة الحـــزب الشيوعى الروس في سنة ١٩٠٥ ، وفى سنة ١٩١٧ انتهزوا فرصة اضطراب الاحوال فى البلاد وأشعلوها ثورة جامحة في طول البلاد وعرضها ضد القيصر حتى أرغموه علي التنازل عن العرش فى مارس سنة ١٩١٧ وكان هذا تاريخ انقضاء دكتاتورية القياصرة ، حيث **خلفتها دكتاتورية أخرى تدعى ظلما بأنها دكتاتورية العمال ، ولكنها فى الحقيقة دكتاتورية طبقة ممتازة فرضت نفسها باسم العمال عـلى الجهاز الحاكم ، وأصبح أكثر ضحاياها العمال الذين قامت باسمهم.**

من هذا التاريخ أخذت الماركسية تلمع كمذهب دولى، بل وسارت بخطى واسعة فى طريقها الى الحكم وسيادة الشيوعية على منـــاطق واسعة لا تفتأ تمتد وتتسع ، وأصبح لها فى نفوس معتنقيها قيمة الدين ، فهم يشعرون بأنها تزودهم بشرح كامل للواقع الشـــامل للانسان ، وأنها تضفى على الحياة احساسا بالغاية ، وهذا ما يفعله الدين ، ولا يعنينا بعد ذلك تقززهم من تشبيهها بالدين ، فان هذا هو الواقع الملموس ، الا أن الدين يفرض أمورا مغيبة لا يستطيع ادراكها العقل البشرى ، وهذه الامور يجب الايمان بها ليبنى عليها

بعد ذلك كل قضية منطقية ، وكذلك تفعل الشيوعية . غاية الامر أن الدين يسلم بهذا ، بينما الشيوعية تكابر فى عناد واصرار مدعية أن تعاليمها الاساسية مضمونة بالعلم ، وأنها نظريات علمية مسلمة، وهذا عين الادعاء والمكابرة ، فان هذه التعاليم جميعها مازالت موضع نزاع كبير بين العلماء والباحثين .

**النظرية العامة للنظام الشيوعى :**

ان القاعدة التى آرسى عليها كارل ماركس بناء هذا النظام تتلخص فى أن تاريخ كل مجتمع انما هو تاريخ صراع الطبقات ، بين العامل وصاحب العمل ، وبين العبد والمولى ، وبهذا لابد وأن ينقسم المجتمع الى طبقتين متضاربتين ( الرأسماليين والعمال ) . فيجتمع العمـال والفقراء ( البروليتاريا ) فى تكتل متعاونين فى القضاء على طبقات المجتمع الاخرى ، ويمد ماركس الى هؤلاء يد العون موجها اياهم الى طريق الثورة الجامحة التى تأتى على معالم الطبقات الاخرى ، **وتمحو تقاليد المجتمع وعاداته ودياناته حيث يرى أن الوسـيلة الوحيدة لقيام المجتمع الشيوعى هى تلك الثورة** قال انجلز :ـ كما اكتشف داروين قانون النشوء والارتقاء فى الطبيعـة العضوية ، اكتشف ماركس قانون النشوء والارتقاء فى التاريخ البشرى » .

« انه اكتشف حقيقة بسيطـة أخفاها الى الآن شطط المذاهب الفكرية ، لأن البشر يجب أولا أن يأكلوا ويشربوا ويجدوا المأوى والملبس قبل أن يمارسوا السياسة والدين والعلم وغير ذلك ، وتبعا لهذا يصبح انتاج الوسائل المادية المباشرة لمعيشتهم ثم درجة التطور الاقتصادى الذى يصل اليه شعبما ، أو فى فترة معينة عاملين يؤلفان الاساس الذى تقوم عليه نظم الدولة ، والمذاهب القـانونية والفن وحتى الافكار الدينية لهذا الشعب ويجب شرح هذه الاشياء فى هذا الضوء بدلا من شرحها بالعكس كما كان الحال الى وقتنا هذا » .

**وقال ماركس في كتابه البيان الشيوعي :ـ « ان تاريخ جميع المجتمعات القائمة الآن هو تاريخ نضال الطبقات » •**

ومن مظاهر هذا الصراع ، ذلك الكفاح الذى نشب قديما بين الاحرار والارقاء ، ثم بين الاشراف والعامة ، ثم بين الرؤساء والعرفاء في نظام الطوائف ، وقام حديثا منذ الثورة الفرنسية بين البرجوازية والعمال • اذ صارت البرجوازية الموجهة للاقتصاد ، فاستأثرت بالثروة والنفوذ السياسى فى الوقت الذى لا تملك فيه الطبقة الثانية سوى العمل العضلى ، مع أنها هى التى تقوم فى عملية الانتاج بأوفر قسط وأهم نصيب •

ونتيجة هذا الصراع المحققة هي فناء الرأسمالية • يقول ماركس :ـ ان قيام النظام الاشتراكي هو آخر مراحل التطور التاريخى ، وآخر مظهر من مظاهر الصراع الطبقى ، لأنها اذ تلغي الملكية وتهدم الفروق الطبقية ، لا تتيح مجالا للمنافسة ، أو لتطاحن الطبقات الاجتماعية • وهو لا يعني باشتراكية توزيع الثروة بالتساوى على أفراد المجتمع ، لانه يرى أن نظم التوزيع تختلف باختلاف الاوضاع التى يصل اليها المجتمع فى تطوره التاريخى ، وباختلاف التنظيم العام لشئون الانتاج في الدولة ، ولذا يرى ماركس ضرورة الاحتفاظ بقسط كبير من أموال الانتاج للصرف منه على زيادة وسائل الانتاج ، وعلى تمويل المشروعات الأقتصادية والثقافية والعمرانية ، وعلى تحمل نفقات التكافل والتضامن الاجتماعى والتأمين ضد المرض والعجز والشيخوخة ، أما الباقى فيوزع على العمال ، لكل تبعا لكمية عمله ونوعه •

وعندما يصل المجتمع الى أسمى مراتب التنظيم الشيوعى ، اى عندما يختفى التعارض بين العمل العقلى واليدوى ، وعندما تتقدم المواهب الفردية ، وتتآزر القوى الانتاجية على زيادة ينابيع الثروة الاشتراكية ، وعندما يصبح العمل هو غاية الحياة ، وليس مجرد

وسيلة رخيصة للحياة ، وفي هذه الحالة يصبح شعار الجميع «من كل حسب امكانياته ولكل حسب حاجاته » .

ولما كانت الهيئة الحاكمة في أول الامر هي الطبقة العمالية أشار ماركس الى أن دكتاتورية العمال هذه ـ التي تقوم في فترة الانتقال للقضاء على دكتاتورية رأس المال ـ لا تعتبر حكم فرد مستبد غير مقيد بقوانين ، ولكن تفهم على أن طبقة جديدة ستمارس الحكم على أنقاض طبقة سابقة ، ولذلك يجب على دكتاتورية العمال أن تختفي بعد أداء مهمتها ، والقضاء على الرأسمالية قضاء لا رجعة فيه .

ثم ان النظرية الاشتراكية تبلغ ذروتها ، عندما تتركز جميع أدوات الانتاج وعناصره في أيدى حكومة قوية تنظمها هيئة عمالية، أو في أيدى هيئة عمالية ، تأخذ شكل الحكومة ، وفي هذه الحالة تختفي مظاهر التنافر بين الطبقات ودوافعه ، ولا تتحكم طبقة في مصائر طبقة أخرى وبذلك يتاح للمواطن أن يحقق في نفسه تقدما حرا في الناحية العقلية والاجتماعية ، لأن الغرض الفذ الذى تهدف اليه الاشتراكية الماركسية هو خلق مجتمع غايته السياسية تحقيق التقدم الحر الكامل لكل فرد من أفراده .

## مبادىء النظام الشيوعى :

وبعـد فيمكن تلخيص المبادىء التى استخلصها الماركسيون من آرائه وأفكاره – ليقوم عليها النظام الشيوعى ، لتعتمد عليها الحكومة الشيوعية – فى النقاط التالية :–

١ – **لا اله والحياة مادة** • يقول ماركس :– لا اله والحياة مادة ••• **ما القانون والاخلاق والدين فى نظر البروليتاريا ( الطبقة العاملة والفقيرة) الا آراء برجوازية متأصلة تتربص وراء أدغالها مصـالح برجوازية • تساوى تلك الآراء عددا ، ورسالة البروليتـاريا هى القضاء على الدين والداعين اليه • »**

ويقول أيضا عن الدين فى مقاله عن هيجل :– « انه نفثة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها ، انه أفيون الشعوب •» وفى كلمة أخرى له عن حرب الطبقات بفرنسا يقول عن الدين :– انه الافيون الذى يخدر الشعب لتسهل سرقته • وان الدين كان وسيلة الاخضاع الروحى ، كما كانت الدولة وسيلة الاخضاع الاقتصادى•»

ويقول خليفته لينين :– « الدين هو أفيون الشعوب ••• الدين نوع من الخمر الروحية يغرق فيها عبيد الرأسمالية صفتهمالانسانية ومطالبتهم بأية حياة انسانية كريمة » •

٢ – **الغاء الملكية الفردية** ، وتأميم المشروعات والمؤسسات ،ووضع أموال الأمة كلها فى يد الحكومة التى توجهها البروليتاريا ان لم تكن من بينها •

يقول انجلز :– « تستلم البروليتاريا السلطة السياسية وتحول – بواسطة هذه السلطة – وسائل الانتاج الاجتمـاعية الآخذة فى

الافلات من يد البرجوازية ، الى ملكية اجتماعية ، فتنزع بذلك عن هذه الوسائل صفتها كرأسمال ، وتمنح صفتها الاجتماعية حرية الرسوخ ، وتتيح تنظيم الانتاج الاجتماعي وفق خطة موضوعة . ان تطور الانتاج يجعل من وجود الطبقات شيئا فات أوانه ، فتختفي سلطة الدولة العامة ، وفوضى الانتاج الاجتماعية ، ويصبح البشر الذين صاروا أخيرا أسياد طريقة التعاون فيما بينهم أسيادا للطبيعة وأسياد لأنفسهم ، أي أحرارا . »

٣ ـ **القضاء على التجارة الداخلية** ، وقيام نظام السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجيات معيشتـــه ، ولا يسمح للأفراد مطلقا بالتجارة الخارجية ، ولكن الدولة هي التي تحتكرها وتسيطر عليها .

يقول انجلز بعد أن استعرض عوامل هدم الرأسمالية :ـ «ليس هناك من حل غير الاعتراف العملي بطابع قوى الانتاج الحديثة ، أي التوفيق بين طرق الانتاج والملكية والتبادل ، وبين طابع طرق الانتاج الاجتماعي ولا يمكن الوصول الى هذا الهدف الا عندما يضع يده حقا وصدقا على قوى الانتاج التي أصبحت أكبر من أن تخضع لادارة غير ادارته . »

٤ ـ **تطبيق نظام الاجور** (( **من كل حسب قدرته ولـــكل حسب حاجته** ) فهو لا يتحدد بنسبة ما قدم من عمل ، وانما يتحدد بقيمة ضروريات الحياة التي يتطلبها العامل ، فالثروة الاجتماعية مجموع يستهلك الفرد منه بقدر ما يسد حاجته ، لا بقدر ما يناسب خدماته وأعماله .

# الشيوعية والعقل

يقول ماركس في مقدمة ( نقـــد الاقتصاد السياسي ) :ـ « ان العلاقات القانونية والاشكال السياسية ، لا يمكن تفسيرها بالترقي المزعوم للعقل البشرى ، ولكنها جميعا تضرب بجذورها فى الظروف المادية للحياة الاجتماعية ، ووجه الانتاج فى الحياة المادية يتحكم فى مظاهر الحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية فى مجموعها • ليس وعى الانسان هو الذى يعين ( ويحدد ) وجوده ، بل ان وجوده الاجتماعى بالاحرى هو الذى يحدد وعيه • »

ونقول :ـ ان الواقع والفكر السليم ، ليشهدان بأن الاسبـــاب المادية لا تغير من حالات البشر الا اذا تحولت الى أسباب نفسيـــة يشعرون بها ، فان الفقير الذى لايعلم أنه فقير لا يفكر فى تغيير حاله ، ولا ينساق الى عمل شعورى ، أو غير شعورى ، لتغيير تلك الحال ، وكذلك الفقير الذى يعلم أنه فقير ، ولكنه لا يكترث لما به ، ولا يبالى أن يغيره أو يتطلع الى تغييره •

هذا وانه لمن العجيب أن يظلل ماركس هذا ، القرن التاسع عشر ، وهو أسبق التواريخ في القارة الاوروبية الى اثبات أثر الحـــالات النفسية فى حركات الاصلاح أو الثورة والانقلاب أى أن القرن التاسع عشر كان أسبق التواريخ الى نقض مذهب أحد أبنائه (ماركس) •

لقد كان قرنا زاخرا بالشكايات القاسية ، التى لم يحاول أحد قط من المصلحين والمؤرخين أن يتجاهلها ، أو يتجاهل من يحسونها ، بل الحقيقة أنهم أولوها اهتماما لم تلقه شكاية ما فى قرون التاريخ الغابرة ، وكان أن ظهر من مذاهب الاصلاح أضعاف ما ظهر منها فى

القرون الاولى ، وليس هذا لخلو تلك القرون الاولى من الشـكايات القاسية فقد كان فى كل قرن ما يزيد عن كفايته ، وانما يرجع السر فى ذلك الى أن الانسان الاوربى فى القرن التاسع عشر كان أعرف بحقوقه وأشد شعورا بالحرمان من أسلافه الذين سـبقوه ، وأربو عليه فى مضانك الحرمان ٠

وعليه فلا يصح ان نربط بين الاصلاح والثورات وبين التقـدم الصناعى ، كما يريد ماركس أن يقول ، بل كان على قدر الاحساس بالحاجة الى الحرية ، والاعتراف بحقوق المساواة ٠

لقد نشأ ماركس وزملاؤه في بلاد متوسطة ، بين عصر الاقطـاع وعصر الصناعة الكبرى وكانوا من دعاة المذاهب الاشتراكية ، بينما نشأ دعاة الثورة الروسية المعاصرون له فىبلاد لمتخرج بعد منعصر الاقطاع ، ولم تكن لها صناعة كبرى تذكر بين أقطار الصناعة ، أما البلاد التى تقدمت فى الصناعة الكبرى كالبلاد الانجليزية ، فقـد قلت فيها الدعوات الثورية واتسعت فيها دعوات الاصلاح بالوسائل الدستورية ٠

وعندما بدا للماركسيين استحـالة استبعاد العوامل الانسانية والفكرة وأثرهما فى التاريخ احتاجوا الى مزيد من الاقناع ، فأرسل طالب الى انجلز سنة ١٨٩٠ يسأله جلاء الشك فى هذه المسألة فقال انجلز :ــ « **انه على ماركس وعلى أنا يقع بعض التبعـة فى توكيد العوامل الاقتصادية واعطائها فوق ما تستحقه من التقدير ، وقـد كنا أمام حملات خصومنا مضطرين الىتوكيد المبدأ الاصيل فىدعوتنا لانكارهم اياه ، ولم يتسع لنا الوقت كل حين لابراز العواملالاخرى بين الفعل ورد الفعل من العوامل المتعددة** ٠ »

وهكذا وبكل بساطه يعلن أنه وماركس قد أهملا العواملالنفسية أو الانسانية تحديا لخصوم المذهب ومناقضيه ، وكأنكسبهمللخصوم

بالتحدى أثمن من تلك العوامل الانسانية ، وأكثر فائدة ، لقد قالوا وكرروا القول بأن الماركسية انما هى لانقـاذ الانسانية ، **فأين هى تلك الانسانية ، اذا لم تعتبر شيئا بجانب انتصارات خداعة يودون تسجيلها على الخصوم .**

وعلى فرض أن هذا الكسب لن يترتب عليه مثل هذا الاهمال ، أفيكون هذا شأن المفكرين العلميين والقادة المصلحين ، **حيث يدعون شيئا لا يعتقدونه ، ويثيرون له الاحقـاد والضغـائن فى نفوس الضعفاء ؟**

لقد تبين لنا بجلاء ووضوح من هذا الخطاب أنهم ظلوا طيلة هذه الحقبة من الزمن يفسرون الأحداث جميعاً تفسيرا خاطئا لا يصلح للاعتماد عليه فى العواقب العظمى التى ترتب عليه ، أى أن الشيوعية تسقط من عداد المذاهب التى يؤخذ بها فى تصوير الحالة فى زمانها، وتصوير الحـالة أو الحالات التى ينبغى أن تعقبها ، فليست هى صورة صادقة للشكايات الاجتماعية ولا هى صورة صادقة لعلاجها.

# الشيوعية فى مجال التطبيق العملى

بعد أن تبين لنا موقف الشيوعية من العقل ، ومحاولتها ازاحته بعيدا عن مجال الفاعلية وذلك بجعله قوة تابعة للمادة ، التى تدين بها وتخضع لها .

وبعد أن تبين أنهم لم يكونوا مجتهدين - فى ذلك الموقف المنحرف من العقل - بذلوا ما يستطيعونه للوصول الى الحقيقة ، ولكنهم أخطأوا السبيل اليها ، أو ندت هى عن طريقهم وانما كانوا مزورين مضللين أعمتهم الاغراض عن الطريق السليم ، فتنكبوه وابتعدوا عنه باعترافهم هم فيما بعد .

ولا يعفيهم من تبعة ذلك ما يتعللون به من قوة خصومهم التى دفعتهم الى هذه المبالغة العنيدة ، جرى وراء شهوة الانتصار ولو فى الباطل - الامر الذى باعد بينهم وبين مايتصف به الباحثون الحقيقون بهذا اللقب ، الجديرون بمركز الزعامة العلمية والقيادة الفكرية .

بعد أن تبين لنا ذلك ، أرى أنه لامجال لمناقشة هذه الافكار التى تقدموا بها الينا عقليا ، حتى لا يتعلل متعلل بتفاهة العقل وعدم جدوى ما تنتجه مناقشاته ، فما دام هدفنا هو الوصول الى الحقيقة التى يضطر الى قبولها كل معاند متعصب ، أصبح واجبنا أن نقصر مناقشة هذه النظرية فى حدود التطبيق العملى ، حيث يدعى أصحابها أنها مبادىء للسلوك ، وليست مجرد نظريات ، وسنتبع فى ذلك استعراض بعض مبادئها الرئيسية باحثين عن مكانها فى الحياة العملية بعد أن اتيحت لها الفرصة أن تحكم قرابة نصف قرن فى مساحة شاسعة من الارض وبين مائتى مليون انسان .

**١ - تنكر الشيوعية وجود ماعدا المحسوس ، فتنكر وجود الله الروح والفضائل ... الخ وتفسر كل شيء بالمادة** ، ولكنها لم تفسر شيئا واحدا ، هو المادة نفسها ، فان الشيوعى لم يحـــاول قط أن يبحثها أو يفسرها وانما اكتفى بأن يدقها بقدمه ويصيح : هذه هى المادة التى نؤمن فى حدودها ، ونحيا فى داخل اطارها . لقد كان فى صيحاته تلك واقعا تحت تأثير ما ، جعله يتكلم فى عجلة ، دون ترو أو تفكير ، فلم يبد له سذاجة نظريته تلك ، أما اليوم فكل سامع من الملمين بأطراف الحديث عن المادة ، يعلم أن مشكلة الروح فى أعمق أعماقها ، لم تواجه الذهن بعقدة فى تفسيرها ، كالعقدة التى تواجهه عند تفسير المادة . ما هى المادة ؟ هل هى لون ؟ هل هى جسم ؟ هل هى ثقل ؟ هل هى امتداد ؟

لا . ان اللون عارض من عوارض النور والنظر ، يتغير على حسب الاضاءة وعلى حسب العين التى تراه ، والجسم كله ذرات تنشق فتتحول الى اهتزاز فى الاثير ، ولا يدرى أحد ما هو الاثير لانه شيء لا طعم له ولا جرم ولا حركة ، ولا فرق فى المدلول عند عارفيه بين كلمة الاثير وكلمة الفضاء والثقل لا وجود له خارج نطاق الجاذبية . والامتداد شيء لا يفهم ، لا يتناهى فى القصر ، ولا يتناهى فى الطول ، سواء نظرنا الى امتداد الزمن أو امتداد المكان . »

**٢ - فى سبيل تقديس الشيوعية للمادة تنكر جدوى القانون والخلق والدين بحجة أنها آراء برجوازية قصـــد بها خـــداع البروليتاريا وتخديرهم .**

والواقع التاريخى يؤكد خلاف ذلك ، فالاخلاق فى عهد الرق كانت المبالغة فى احتقار العبودية والثورة عليها ، والتنفير من قبحها ، وفى عهد الاقطاع نجدها ممثلة فى تمجيد النسب الرفيع وازدراء الخامل ، وفى عهد رأس المال نجد الاخلاق هى المبالغة فى تعظيم الترف والغنى

والأنفه من ذل الحاجه والفاقة • وكل هذه الانواع من الاخلاق واضح الدلالة . مفهوم الحقيقة ، ولكن الذى لا يفهم ولا يتقبله عقـل هو ان تكون تلك الأخلاق من صنـع الطبقة البرجوازية ابقاء على سيطرتهم وسلطانهم •

٣ ـ وبناء على هذا المبدأ **تجعل الشيوعية الأحوال المادية هي كل** شيء فى تفسير حركات التاريخ ومذاهب الدعاة ، ولكنهم لا يذكرون حركة واحدة من تلك الحركات المعروفة الا كان الامر فيها موقوفا على مسألة «شعور» قبل كل شيء وبعد كل شيء •

فمثلا هجرة الناس الى القارة الامريكية عقب اكتشافها فرارا من الفقر ، أو سعيا وراء حرية العقيدة ، تلك التى افتقدوها فى بلادهم بالنسبة لمثل هذه الهجرة نتساءل : ـ لماذا هاجر أناس وبقى آخرون ـ وقد اتفق العامل المادى عند الجميع ـ ما دام هذا العامل المادى هو السبب والمؤثر ؟

ان المسألة مسألة فارق فى الشعور بالفاقة والشعور بالحجر على العقيدة ، أولا وقبل كل شيء •

**٤ ـ ثم هي كذلك تنكر الاديان فى سبيل تقديس المادة ، وهى لا تنكر الاديان فحسب ، بل تحاربها بكل ما اوتيت من وسائل •**

ولكن الواقع العملى سرعان ما أوقفنا على مقدار تجنى الماركسية على الدين ، وذلك عندما أخذت فى التطبيق العملى ، فبدأ زعمـاء الشيوعية يتنازلون عن هذه الغطرسة المادية ، وهى وان كانت فى حدود ضيقة ، الا أنها على أية حال نذير بالتقهقر ، ودليل على بطلان هذا المبدأ الهام فى النظرية الماركسية •

هذا ستالين يعلن أن الدين ـ أفيون الشعوب ـ يقذف فى قلوب أبنائه التضحية والبسالة والاقدام ، فيقول سنة ١٩٤٣ عندما أعلنت الحرب بين هتلر وروسيا :ـ « **ان روسيا كانت قد اخطأت فى القديم**

**وهي تعترف بذلك ،وترجع عن خطئها . فتبيح الاديان ،وتعترف بالله .** وبدأت الاذاعة من جـديد تغنى باسم الدين ، ليخلق فى الشعب القوة الروحية الكامنة فى روسيا الارثوذكية ، لتوازن قوة الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية ، خصوصا وأن دول البلقان تحوى ما يقرب من أربعين مليونا من الارتوذكس ، وأحيا ستالين « المجمع المقدس » فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ بعـد أن ألغاه البلاشفة نهائيا ، وعين مفتيا اسلاميا ، وبطريركا مسيحيا ، وأرسل رجاله المخلصين من الحـزب الشيوعي الى القرى والاقاليم يدعون الى الايمان بالله ، وانتشرت الدعاية فى الشرق والغرب أن روسيا عادت الى الدين من جـديد ، أعلن « سلطانوف » أحد رجال السلك السياسى الروسى فى مصر اسلامه .

٥ ـ **الماركسية تحرم الملكية الفردية ، لأنها أساس الطبقـات ،** وعلماء النفس يقولون :ـ **ان أى نظام يقوم على مقاومة غريزة أصيلة فى الانسان مآله الفشل ونصيبه البـوار . وقـد** صدق تطبق الماركسية قولة علماء النفس ، فقد ألغى لينين ـ ومن بعده ستالين ـ طبقة صغار الملاك فى أول سنة حكم فيها سنة ١٩١٧ ، ولـكنه اضطر الى اعادتها سنة ١٩٢١ ، وعاد فألغاها مرة أخرى سنة ١٩٢٦ ، ثم أعيدت ثانية سنة ١٩٣٢ ، وهكذا التكرار فى الالغاء والاعادة ، يوضح لنا مدى ايمانه بهذا النظام ( الغاء الملكية الفردية ) كمـا يوضح فى نفس الوقت قوة العقبات التى تكتشف فى المرة تـلو الاخرى عند محاولة تطبيقه .

٦ ـ **الدولة الماركسية تسيطر على كل اقتصاديات البلاد ،** وفى هذا من المضار الاقتصادية ما فيه والذى تشير اليه الارقام .

يقول جوستاف لوبون فى كتابه روح الاشتراكية :ـ «**ان مقايسة نفقات المصنوعات الخالصة التى تديرها الشركات ونفقات مصنوعات الحكومة ، أمر مهم للغاية ، اذ ظهر من هذه المقايسة التى آتى بهـا**

**منذ زمن بعيد أن ما تصنعه الحكومة نفسها كان أغلى مما يصنعه الافراد بزيادة قدرها ٢٥٪أو٥٠٪ ولغلاء مصنوعات الحكومة أسباب كثيرة ، ومن هذه الاسباب نشير الى وجود سبب نفسي بجانب ما فى النظم والمعاملات من التعقيد ، وهذا السبب هو عدم مبالاة المرء بالمشاريع التى لا يكون له فيها منفعة شخصية ، فقد سقطت أغلب المشروعات التى أدارها الوسطاء بدلا من أن يديرها أفراد يهتمون بنجاحها ، وينجم عن ذلك تباين فى طرق الادارة • »**

**٧ ـ يستتبع تحريم الملكية الفردية تحريم التوريث ، لأنه نوع من الملكية** ـ التى هى أساس النكبات كما يقولون ـ **متجاهلين أن نظام الارث من أعظم الاسباب ، وأسلم الوسائل ، لتفتيت الملكيات وهو طريق عملى للقضاء على الرأسمالية • هذا الى أن تحريمه يخالف الطبيعة البشرية ، التى تورث الابناء خصائص الآباء من صحة وقوة ومرض وضعف وذكاء وغباء •• الخ وكذلك فان تحريم الارث يقضى على الامل وباعث الهمة فى نفوس الافراد والجماعات ، فاى دافع ـ تظن ـ يبقى للعامل ، كى يبذل جهدا فى سبيل شيء يعلم أنه محروم من ثمرته هو وأولاده من بعده •**

ولهذا فان النظام الشيوعى لم يستطع تنفيذ هذا المبدأ طويلا . ثم عاد فاعترف سنة ١٩٤٦ بحق المورث فى الايصاء بتركته الى شخص يختاره هو فى حالة عدم وجود قريب يرثه ، فجاء فى الدستور الروسى الجديد فى المادة العاشرة منه : ـ « أن حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم وفى مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية ، وفى الحاجيات والأدوات المنزلية ، فى الاشياء ذات الاستعمال الشخصى والراحة ، وكذلك حقهم فى ارث الملكية الشخصية حق مصون بموجب القانون • »

**٨ ـ ثم يأتى العامل وأجره فى النظام الشيوعى** ـ وكل الشعب

يعتبر عاملا ـ حيث يسوى في الاجر بين من يعمل بيده ، ومن يعمل بذهنه وعقله ( من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته ) ، وهنا نتساءل : **كيف تتفاوت المجهودات ، ولا تتفاوت الاجور ؟** يقولون بأن العمال جميعا أناس يجب أن يتساووا في الاجور ، وهذا مغــالطة وخطأ ، فهم بتحديدهم أجرا متساويا للعمال جميعا يقررون أنهــم متساوون قوة وضعفا ، ذكاء وابتكارا ، وهـــذا ما لم يقل به مفكر ولا أقره واقع •

كان من الممكن ـ لو كان الشيوعي يعتقد في المثل والروحانيات ـ أن يتنازل هذا عن شيء من حقه ارضاء لهذه المثل ، أما أن يجبر على ذلك دون سبب الا المساواة فهذا مالا يقبل مطلقا ، **فبأى حق يسوى بين عامل يصنع الاحذية او المنسوجات مثلا وبين عالم كاديسون الذى افنى عمره في البحث والتنقيب ؟ مثل هذه المساواة سوف تنتج تراخى المجد ، والاقتصاد النشيط ، مما يترتب عليه قلة الانتاج كما وكيفا ، ما دامت المساواة فى الأجر مضمونة •**

وقد تتخذ اجراءات لتلافى مثل هذه النتائج ، فيعين مثلا مشرفون على العمال يحثونهم على العمل ، وجدلا لو صح هذا وتمكن المشرفون من القيام بمهمتهم ، فانه من العسير نجاح هذا الاشراف فى المزارع ، اذ كيف يتسنى لنا أن نضـــع بجوار كل زارع من يشرف عليه ، والاراضى واسعة شاسعة والفلاحون متفرقون فى أنحاء مختلفة •

**اذن فلن يكون الحل الا ببث العيون والارصاد ، والتلويح بسوط الارهاب ، وشبح البوليس السرى ، يتهددهم بالموت ان هم تراخوا فى العمل •**

وقد يكون الحل بوضع حد أدنى لانتاج العامل ، فلا يتسلم العامل أجره الا اذا أتم الكمية المطلوبة ، وفى هذا من السخف مالا يحتمله عقل ، فكيف نفرض حدا أدنى ، وهناك من رزق قوة جسم ، ورجاحة عقل تمكنه من القيام بأكثر من هذا ، وبجانبهم آخرون لا يستطيعون

ذلك لضعف بنيتهم ، فيكون الحال ، أن المجتمع سيحرم من الانتاج الذى يستطيع القادر أن يقدمه زيادة على الحد المفروض ، **لان الناس أميل الى الراحة ، خاصة اذا كان التعب دون مقابل** كما أنه سيحكم على الضعيف بالاعدام جوعا ، لانه لم يستطع أن يؤدى الحد المفروض عليه وهذا هو الدافع الى أن يصف كوستلر هذا المجتمع الماركسى بأنه يتألف من انتاج طابق سفلى وانتاج طابق علوى ذهنى ، ولكن ليس فى هذا المبدأ درجات ولا مصاعد ٠

وبهذا يتبين أن هذا المبدأ ـ من المساواة ـ لم يكن الا خدعة ، تخلب ألباب العمال الذين يئنون من التعطل والفقر فى ظل الراسمالية ولكنها خدعة لم تدم طويلا فهذا ستالين يقرر صراحة فى مؤتمر عقد سنة ١٩٣١ لرجال المال والاقتصاد المشرفين على الانتاج فى البلاد ويقول :ـ ان سير التقدم قد تعثرت خطاه ، نظرا للطريقة التى يسير عليها العمال من اهمال وتكاسل ، وأنحى باللائمة على رجال الاقتصاد وأنذرهم بوجوب الاعتراف بأن الظروف الجديدة تتطلب وسائل جديدة ، ويجب أن يواجهوا مجرى العمل بنظام من الاجور المتفاوتة لكى يزيد الانتاج ٠

وبذلك تراجعت الماركسية عن مبدأ أصيل فى نظريتها ـ من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته ـ ونصت المادة ١٢ من الدستور الجديد على نظام جديد للاجور يقول :ـ « من كل حسب قدرته ولكل واحد حسب عمله ٠ »

٩ ـ **الماركسية حرب على الطبقات** ، لأن الطبقة الواحدة هى غاية التاريخ الانسانى كله والماركسية فى سبيل تأكيد هذا المعنى تحاول تشويه كثير من حقائق الحياة ، ولكن عند التطبيق العملى تبين لنا ما فى هذه الغاية ـ التخلص من الطبقات من خدر وتنويم ، والا فأين هى هذه الغاية فى ذلك البيان الذى أذاعته وكالة الانباء السوفيتية (تاس)

ونشرته مجلة آخر ساعة الصادرة فى يوم ٢٨ من شهر أبريل سنة ١٩٤٨ جاء فيه :ـ

ان جائزة ستالين للموسيقي وقدرها مائة الف روبل قد منحت عام ١٩٤٧ لجوزيف كليتا من أجل لحنه «أغنية ستالين» وان جائزة ستالين للتصوير وقدرها مائة ألف روبل قد منحت «لاراكلي طويدز» من أجل صورته « ستالين يخطب في احتفال الذكرى الرابعة والعشرين لثورة اكتوبر » ، أما الجائزة الثالثة وقدرها خمسون ألف روبل فقد منحت للرسام «باركرافتشنكو» من أجل صورته «جوركي يقرأ قصته أمام ستالين ومولوتوف وفورشيلوف» وأما جائزة ستالين للنحت وقدرها كذلك مائة ألف روبل فقد منحت «لنيقولاى تومسكى» من أجل تمثاله «ستالين» وجوائز ثانية وثالثة منحت لموسيقيين ورسامين ونحاتين من أجل موسيقاهم وتماثيلهم لستالين ، **وجملة** الجوائز التي منحتها الدولة ـ دولة الشيوعيين ونعيم الفقراء والمحرومين **باسم ستالين ومن أجل صور وتماثيل تبلغ نحو أربعين ألف جنيه، والذى قرر منح هذه الجوائز هو مجلس السوفيت ، والرفيق ستالين هو رئيس المجلس المذكور »** •

وفى مناقشة رسالة الاستاذ ( فؤاد شبل ) الملحق الصحفي بالمفوضية المصرية بموسكو سابقا عن « الدستور السوفيتي الجديد » لنيل درجة الماجستير ، وكان من أعضاء لجنة التحكيم الاستاذ كامل عبد الرحيم الوزير المفوض المصرى بمسكو سابقا • جاء فى هذه المناقشة ـ البيانات التالية :ـ « أجرة الفلاح الروسى ٣٠٠ روبل شهريا ( الروبل يساوى خمسة قروش مصرية تقريبا ) تقتطع منها الحكومة ١٥٠ روبلا لتقوية الصناعات• **المثلون والراقصات والأدباء والكتاب يسمون بالطبقة المثقفة ويتقاضون أجور عالية تصل الى عشرين الف روبل شهريا • الطبقة المثقفة وهى حوالى ٨ ـ ٧٪ من**

السكان تنعم بحوالى ٤٣٪ من الأجور ، وأبناء الطبقة المثقفة يتمتعون بالتعليم الجامعى سواء المجاني منه أو غير المجانى ، وأبناء الفلاحين لا يستطيعون التمتع به • »

وهكذا يكون حرب الطبقات في الدولة الشيوعية تنفيذا لتعاليم كارل ماركس •

١٠ ـ تقول الشيوعية انها سوف تنقذ العمال من الذل والاستعباد في ظلال الرأسمالية ولكن سرعان ما وضح أن هذه الكلمات ما هى الا احدى خدعهم التي يموهون بها الحقائق ويغررون بها الشعوب والعمال بوجه أخص • وهذه بعض الحقائق التى تبين موقفها من العامل الذى أصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار •

ففى ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ صدر مرسوم ينص على أن العامل يجب أن يقبل أى عمل يعهد اليه به ، وفى أية بلد وفى أى مكان • وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ و٩ أكتوبر سنة ١٩٣٠ و١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ صدرت مراسيم تحرم على العامل أن يتخلى من تلقاء نفسه عن أى عمل يسند اليه ، والا فانه يعد هاربا ، ويحكم عليه بأن يقضى عشرة أعوام فى معسكرات العمل الاجبارى • وينص مرسوم ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ومرسوم ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ على أن العامل اذا غاب يوما واحدا ، أو تكرر تأخره عن مواعيد العمل ثلاث مرات فى شهر واحد ، فانه يفصل من عمله ، ويحرم من بطاقة الاتحاد المثبتة لمهنته ، والتى تعطيه حق السكنى والغذاء ، ويتعرض للحكم عليه بالسجن مدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة •

وينص المرسومان الصادران فى أول يونيو سنة ١٩٣٢ و٢ يونية سنة ١٩٤٢ على أن العمال مسئولون ماليا عن أى ضرر يحل بالمصنع أو بالادوات بحسب تقدير مدير العمل فقط ، وقد يصل ما يقتطع من أجر العامل الى عشرة أمثال ما أتلف أو ضيع •

وينص القانون السوفيتي الاعلى الصادر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ على أن من حق المدير أن يفرض عقوبة السجن على العامل لمدة أربعة أشهر دون تحقيق أو محاكمة .

**كل هذا يحدث من حكومة تدعى أنها حكومة عمال . »**

وبعد فهذه هي الماركسية فى سنى حكمها الاولى ، تسير فى تقهقر مستمر ، لا تتنازل عن مبدأ الا لتتنازل عن الآخر ، فهى تبتعد سنة بعد سنة عن عقائد المذهب الذى قامت عليه دون استثنـاء فى ذلك لعقيدة من العقائد ، ولولا هذا التقهقر والتباعد عن مبادئها لما تقدمت فيها صناعة ولا ازدهرت فيها زراعة .

**ان تجربة الماركسية فى الدولة الشيوعية الكبرى قد نجحت بمقدار ما تركت من المذهب لا بمقدار ما أخـذت منه ، وكل ما فى الدولة الشيوعية ـ حاليا وبعد أربعين سنة ـ يدل على اباحة المحـرمات والمحظورات ، التى ما قامت الماركسية الا لتمحوها ، فالدين والوطنية اعترف بهما حين شبت الحرب، واتضح للزعماء الملحدين مقدار أهميتها،** والطبقة ـ وهى أملهم المنتظر وغايتهم المترقبة ، وعذرهم أمام كل موبقة يستبيحونها فى سبيله ـ لم يبطل قيام الطبقة الحاكمة بعـد انتهاء الاستغلال على أيدى أصحاب الاموال ، بل جدت طبقات لم تكن وتفاوتت درجات المعيشة تبعا لذلك .

**لقد أتيح لنظرية ماركس من الفرص ما فيه الكفاية لاظهار قوتها العملية فى** مجال التطبيق ، أربعون عاما من الزمن ، ومائتا مليون من الأناسى ومساحة تبلغ ضعف القارة الاوروبية كلها ، أو سدس العالم، **ومع ذلك خرجت مثقلة بالديون ، بعد أن غيرت أصولها وتخلت عن عناصرها .**

لقد كانت هذه النظرية امتدادا لتلك الحركات المادية الأخـرى

المتناثرة فى عصور التاريخ البعيدة ، وذلك لاتحادها جميعـــا فى الاهداف والوسائل والدعائم وأحوال القائمين بها والداعين اليها •

ولعل أصدق اطلاق عليها هو أنها **ظاهرة معتلة ، نشأت فى وسط معتل ، نتيجة مقدمات معتلة ، على يد طائفة معتلة ، تعتقد أن سنن الدساتير القائمة على العلم ، والقوانين المستندة الى العقل يكفى لتجديد العالم • ثم هى بمنطق القهر تسلطت على شعب ثائر معتل ، لم يفق بعد من ثورته على القياصرة حتى يتبين الحق من الباطل ، ولـــكن ما لبثت الحقيقة أن تكشفت له ، وبدأ يتعرف عليها ، ويحاول أن يصرخ ـ وان كان فمه مكمما ـ بأعلى صوته ، محذرا اخـوانه فى الانسانية من أن يحيق بهم ما أصابه •**

يقول الشاعر الروسى « بسترناك » فى كتابه «الدكتور زيفاج» الذى كان سببا فى انهاء حياته ، والذى نال عليه جائزة نوبل للســلام سنة ١٩٥٨ حيث قامت قيامة زعماء الكرملين ثم فصل من اتحاد الكتاب هناك ، وشكلت هيئة لمحاكمته ، بعد أن أعلن على لسانه رفض الجائزة واعتذاره لحكومته ــ يقول هذا الكاتب ناقدا المادية خاصة الماركسية من بينها :ــ

« انها ــ يعنى الحكمة الالهية ــ تخلق نفوسا وأرواحا يتعلق بهـا الخلاص أو الهلاك وليس من عملها أن تفضل جمهورا من الناس عـلى جمهور » •

**« ان المادية التاريخية مذهب تتباعد فيه المسافة بين النظـريات ووقائع الحياة • »**

**« ان الحياة وهبت لنا لنحياها ، لا لنجعلها تمهيدا لتنفيـذ أقوال أصحاب الآراء • »**

« ان التاريخ شبح يخلقه خيال الانسان ، ليصـــور به تسلسل

الحوادث ، وليس من حقه أن يدفع الناس مع الماضى الى المستقبل لنسيان الحاضر » .

« ان الحيوية هى أساس كل فن وكل شاعرية ، وهى ينبوع ينبثق من الداخل ، ولا يملى عليه من الخارج » .

**ويقول الرئيس جمال عبد الناصر يقدم لكتاب «حقيقة الشيوعية» ان الشيوعية حين أصبحت نظاما للحكم انقلبت الى شىء آخر غير ما كان يأمله دعاتها ، وما أكثر النظريات التى تفتن وتخدع حتى اذا دخلت دور التطبيق العملى انحسر عنها لثامها ، وأسفرت عن حقائقها الاليمة !**

**كل ما كسبه الشيوعيون من شيوعيتهم أنهم صاروا آلات فى جهاز الانتاج العام وكانوا بشرا ذوى ارادة .**

**لقد كفروا بالدين ، لأن الدين فى عرف الشيوعية خرافة ، وكفروا بالفرد ، لأن الفرد فى دين الشيوعية لا كيان له ولا حقيقة لوجوده ، وانما الكيان للدولة ، وكفروا بالحرية لأن الحرية نوع من ايمان الفرد بذاته ، وليس للفرد فى النظام الشيوعى ذات ولا ارادة ، وكفروا بالمساواة فى نظام الدولة ، لأن الدولة فى دستور الشيوعية طبقات تنتظم فى هرم يتربع على قمته فرد ويحتشد ملايين الشعب فى القاعدة . »**

# الإسلام

**« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »**

يضيق بحثنا هذا عن ذكر التفاصيل والملابسات التي سبقت وعاصرت نشأة الدين الاسلامي ، ولذا فسوف نستعرض العالم قبيل الاسلام في ايجاز يفرضه ضيق المجال ـ مسلطين الضوء على بعض الجوانب والزوايا في الاقاليم المشهورة في تلك الآونة .

يلاحظ الناظر في تاريخ الانسانية في الفترة ، قبيل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ومجيئه بالاسلام ، أن العالم كانت تكتنفه الشكايات من أقصاه الى أقصاه ، فلم تك تسمع الا أنينا ينبعث من كل جانب من جوانب هذا العالم الرحيب .

من فارس ـ حيث الاكاسرة يحكمون ولا راد لحكمهم ، والنار تعبد وتقدس ، ولا هيمنة على النفوس لسواها ـ كانت تنبعث الشكايات المختلفة التي كانت سببا في ظهور «ماني» في القرن الثالث الميلادي الذي دعا الى حياة العزوبة ، فحرم النكاح ، استعجالا للفناء ، وانتصارا للنور على الظلمة بقطع النسل ثم قام على أنقاضه «مزدك» فأعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ؛ فينبغي أن يعيشوا سواء . لا فرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت عليه النفوس « أحل النساء ـ كما روى ذلك الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ـ وأباح الاموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ » ويقول البروفسور أرتهرش: «كان المجتمع الايراني مؤسسا على اعتبار النسب والحرف وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ، ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة

تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقارا لأمير أو كبير ، وكان من القواعد السياسية الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لهـا ، وكان ملوك ايران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع » ٠

كما كانت تنبعث الشكايات من الدولة الرومية حيث كانت فى غاية الانحلال ، على كثرة مصائب الرعية فازدادت الاتاوات ، وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ويمقتونها مقتا شديدا ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، وقد هلك سنة ٥٣٢ ثلاثون ألف شخص فى العاصمة نتيجة الثورات والاضطرابات التى حدثت فى ذلك الحين ٠

« لقد كان العدل ـ كما يقول (سيل) ـ يباع ويساوم مثل السلع وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الامة كل تشجيع ٠ «يقول جيبون :ـ « فى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديهـا وهبوطها الى آخـر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة ، كانت أمم العالم فى حين من الاحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها الا الجذع الذى لا يزداد كل يوم الا ذبولا » ويقول الفرد ٠ ج بتلـر : « ان الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس ، وضرائب أخرى كثـيرة العدد ٠٠٠ مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل »

ولما ضاق الشعب بهذه المظالم ولم يجد منها مخلصا ، لامن نفسه ـ لسيطرة الحاكمين عليه ـ ولا من خارجه ، وجه ما فى نفســه من ثورات وتنازع الى الخلافات الجدلية ، والمناقشات اللفظية العقيمة ، قال أحد رهبان الكنيسة :ـ « كانت أطراف المدينة جميعـا ملأى

بالجدل ، ترى فى الاسواق ، وعند باعة الملابس ، وصيارفة النقود ، وباعة الأطعمة فأنت تريد أن تبدل قطعة من ذهب ، فاذا بك فى جدل عما خلق وعما لم يخلق ، وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : الاب الاعظم من الابن والابن خاضع له . وأنت تسأل عن حمامك ، وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم »

وكذلك كانت تنبعث من الصين الشكايات ، حيث كان الشعب مؤرقا قلقا بين أفكار متعددة لا تقدم حلا لمشكلاته تلك المتفاقمة ، مع تتابـــع الايام فكانت تنتشر بها ديانات ثلاثة : ديانة « لاوتسو » و « كونفشيوس » و « البوذية » وكانت اما قاصرة أو ضعيفة هزيلة سرعان ما تنحط وتندثر ، فلم يكن عند الصينيين رسالة دينية يمكن أن تحل بها مشكلات العالم .

وفى الجزيرة العربية نجد جاهلية عارمة ، فالقمار من مفاخرهم ، والربا يجرى مجرى الامور الطبيعية ، والمرأة ينظر اليها نظرتهم الى المتاع ، توءد طفلة ، وتقهر امرأة ، ويحال بينها وبين الحياة الحرة الكريمة ، والحرب تشب بينهم لأتفه سبب .. وغير ذلك كثير من عوامل الانحطاط والضياع .

يقول الطبرى فى تفسيره : « كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله ، فيقعد حزينا سليبا ينظر الى ماله فى يد غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا .. »

**وبالجملة لم يكن على ظهر الارض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الاخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الانبياء يأخذ بيد البشرية ، ويقودهم الى طريق السلامة والأمن .**

هذه الشكايات ــ مع تقارب أو تباعد أسبابها ــ وحدت حاجات

البشرية جميعا الى انقاذ يمسح عنها ما تلاقيه من اعنات وارهاق ، وما يقع عليها من ظلم واجحاف ، وما تحســـه من جفاف فى الروح ونضوب فى النفس ·

ولكن هذا وحده لم يكن سببا كافيا يتطلب مجيء الاسلام ، فمثل هذه الظلامات يمكن أن تعالج بتجديد الرسالات السابقة ، وازالة ما علق بها من غبار حجب نورها عن المؤمنين بها ، ولا حاجة لبعث رسول جديد بدين جديد كهذا ·

**ان الحاجة الى الاسلام كانت تنبثق من ناحية أخـرى تحتم مجيء دين جديد يجمع بين شفافية الروح وقوة المادة فى اطار ممتزج متناسق حتى يحقق للبشرية حاجتها وسموها ويمضى بها فى رحلة الحياة قوية كريمة تساير واقعها الارضى وتشارف أفق الفضيلة الاعلى فى تجاوب لا تكلف معه ولا نفور وذلك هى الفطرة التى فطر عليها البشر وذلك ما جاء به الاسلام وما حققه على يد المؤمنين به فسعدت به الدنيـــا وأمنت الشعوب ظلم المتجبرين وسيطرة المتالهين « ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ·**

لقد كرم الله الانسان بالعقل ، وفضله به على سائر خلقه ، وجعل هذا العقل يسير فى خط النماء والنضج منذ كان آدم أبو الانسانية ، وكلما قطع مرحلة من مراحل النمو تلك وأنهكه السير فأصـــبح فى حاجة الى مساعد يعاونه على تبديد ما خيم على الكون من ظلام ، تلفت يمنة أو يسرة يبحث عن مدد يأتيه ، كيما يواصل سيره ، ويستأنف نشاطه ·

اتبع الخالق جل شأنه فى تنمية هذا المخلوق ــ العقل ــ وسائل يأخذ بعضها بحجز بعض ويسلم أولها الى تاليها ، فكانت الرسالات حيث تتابع بها المرسلون ، كل يقدم بين يدى رســـالته ما يدفع قومه الى الايمان به ويغريهم بتصديقه ــ ازالة لما علق بأذهانهم من

عدم الثقة ـ ولم تكن هذه المعجزات الا أمورا تتفق مع طبيعة المرسل اليهم وعقليتهم التي ما زالت في دور الطفولة فكانت المعجزات التي تقدم بين يدي المرسلين معجزات مادية لا يستطيع من يراها الا أن يذعن لمن قام بها ويتأكد لديه أن هذا الانسان تسانده قوة تستطيع مالا يستطيعه الانسان ٠

لم يكن عقل الانسان ومنطقه كافيا في ادراك أن الله خالق كل شيء وانه الملك الحق لا اله الا هو ٠

ولن نتوغل في القدم مع الانبياء السابقين لنرى وسائلهم في اقناع من أرسلوا اليهم ولكننا سنراجع أحداثا لايبعد عنا أقصاها أكثر من خمسة وعشرين قرنا ، كمثل يوضح تلك الحقيقة ٠

لما قضى الله أن يبعث موسى ، زوده بما لايترك مجالا لمنكر ٠٠ « نودي من شاطيء الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين ٠ **وأن الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين ٠ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين » ٣٠ ـ ٣٢ القصص ٠ وهذه المعجزات** صريحة في الدلالة على غلبة منطق العقل ، والتصور المادي على التصور الروحي ٠

وبعد أن انقضت عليه خمسة قرون أو ستة ، جاء عيسى يدعو قومه الى الله تعالى ، فقدم لهم كذلك ما يدل على تأييد الله له فأبرأ المرضى وأحيا الموتى « اذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس **تكلم الناس في المهد وكهلا ،** واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، **واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وتبرىء الأكمه والأبرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني**

اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينـات فقال الذين كفروا منهم أن هـذا الا سحر مبين » ١١٠ المائدة · وكان هذا تطويراً للمعجزة تبعا لنمو عقل الانسان ، فبعد أن كانت مادية بحتة ، اذا بها مادية تنبثق من القلب والعاطفة ، ولذلك كانت تختلط في تعاليمه دعـوة العاطفة الى الرحمة والمغفرة والمحبة بدعوة عقلية غير مدعومة بالدليـل المنطقى ــ الى ملكوت الله · وهذا صريح فى الدلالة على أن منطـق العقل لم يكن الى ذلك العهد قد بلغ من النضوج مايجعله وحده قادراً على ادراك الحقيقة العليـا فى أمر الخالق جل شـأنه ، وانه أحـد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ·

وفى هذا الزمن الـذى جاء فيه موسى وعيسى عليهما السلام ــ انتقلت علوم مصر وفلسفتها وتشريعاتها الى اليونان والى روميـة ، وغزت بسلطانها وبمنطقها الافكار وأوحت الى الفلسفة اليونانية والى الادب اليونانى خير مافيهما ·

بدأت يقظة العقل ومنطقه ينبهان الناس الى أن الخـوارق الحسية لاتنهض بذاتها دليلا عقليا على شىء ·

لقد كتب الله فى سنته أن يكون منطق العقل تاج هذه الحيـاة الانسانية ، على ألا يكون منطقا جافيا خالـا من العاطفة ومن الروح ، بل على أن يكون منطقا توفيقيا ينتظم العقل والعاطفة والروح جميعا حتى يستطيع اكتناه غاية ماتستطيعه الانسانية من أسرار الكون ، وكان هذا ممثلا فى الدعوة الاسلامية التى قام بها نبى الاسلام محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم ــ يدعو الى الحق بمنطق العقـل تؤازره العاطفة والروح « **ان فى خلق السموات والأرض واختـلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات**

**لقوم يعقلون » « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »**

ومادام هذا الدين خاتمة المطاف وقمة النضج العقلى ، فلا بد وأن يشتمل حلولا لكافة مشاكل الانسان ، حتى لايشعر الحاجة الى غيره ، ولذا جاءت تعاليمه ملائمة لطبيعة الانسان وفطرته بما فيها من ميول ورغبات ، حتى انها لتحس الحاجة اليه اذا حيل بينها وبينه لأمر ما • « فأقم وجهك للدين حنيفا **فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »** •

وعليه فقد أصبح الانسان بتلك الدعوة فى غنى عن أية دعـوة أخرى، والا كانت عبثا لاهدف لها ، **ولذا كانت معجزة هذا الرسول فى الكتاب الكريم الذى أوحى اليه حاملا فى ثناياه قوة ذاتية تتلاءم مع الانسانية فى قمة مراحلها التطورية** فجاء مشتملا على كافة الحاجات الانسانية ، ولم يترك جانبا من جوانب الحياة الا تعرض له وتعمق فى بحثه بما يكفل للجميع فى كل جيل تقدما ورفاهية واستقرارا •

« ••• **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لـكم الاسلام دينا »**

# نظرية الإسلام العامة في الاقتصاد

يخطىء من يظن أن هناك فى الاسلام نظرية اقتصادية قائمة بذاتها ، لاترابط بينها وبين ماعداها من أسس وقواعد ٠

**فالاسلام ـ وهو دين التوحيد ـ ينظر الى الانسان بإشكاياته كوحدة مترابطة يأخذ بعضها بأسباب بعض** ، ولما كان الدين الاسلامى انما يهدف الى الاخذ بيد البشرية والسير بها فى سبيل الترقى والتحضر ـ بعد أن وصلت الى مرحلة القمة فى النماء والنضج ـ كان عليه أن يقدم للانسانية ما يكفل تحقيق هذا الهدف والوصول اليه ٠

نظر الاسلام الى الانسان فى مجتمعه نظرة فاحصة ٠ مبنية على الواقع ، فلاحظ أن الفرد يتنازعه عاملان يبدوان على طرفى نقيض :

١ ـ **عامل ينبعث من داخل الفرد** ، فيسيطر على سلوكه ، ويتحكم فى تفكيره ويدفعه دفعا الى الفردية ، ويتمثل هذا العامل فى غرائز الفرد وميوله ونزعاته ٠

٢ ـ **عامل ينبعث من ظروف الفرد فى حياته الفطرية** ، ويحاول انتزاع السيطرة من العامل السابق ، بعد أن يفنيه أو يكبته ليدفع الفرد فى غمار الجماعة مسلوب الاحساس بفرديته ، يتمثل هذا العامل فى علاقة الفرد بغيره من ابن وزوج ووالدين وأخوة وأقارب وأصدقاء ٠

كما لاحظ الاسلام كذلك أن الانسان بفطرته لايستغنى عن

واحد من هذين بالآخر لأن كلا منهما عنصر أساسي في تكوينه ، فعليهما يقوم البناء الانساني المتكامل •

• **وبناء على هذه الملاحظات بنى نظريته ، مخططا للانسانية طريق الحضارة السعيدة بحيث لايطمع الفرد في الجماعة ، ولا تطغى الجماعة على الفرد ، فجاءت مزاجا يحقق خير الجماعة ، وحرية الفرد في ظل العدل الانساني** ، ولما كان تحقيق هذا المزاج يجب أن تراعى فيه ذاتية الفرد وكيان الجماعة • ليس من الناحية المادية وحدها ، بل – كما سبق الاشارة الى ذلك – من جميع النواحي الانسانية المختلفة ، فهو يدعو الفرد – لأنه اللبنة التي يقوم عليها البناء الجماعي – أولا وقبل كل شيء الى ادراك صلته بالوجود ومكانه منه • ويظل يؤكد هذه الدعوة ويقررها في نفسه حتى تصل الى درجة الايمان ، وعندئذ يدعوه ايمانه الى مواصلة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، والى تزويد قلبه وعقله بالمبادىء السامية ( مبادىء الاباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والتقوى ) وعلى أساس هذه المبادىء ينظم الانسان حياته الاقتصادية ، كما ينظم حياته الاجتماعية الخ •• كل هذه الجوانب في حياة الانسان •

يقوم الروح أولا ويوجهها ، ثم يبنى على ذلك نظامه التهذيبي ومعياره الخلقي الذي ينبثق منه ، ويقوم على أساسه نظامه الاقتصادي **وعليه فلا يجوز أن يضحى بشيء من مبادىء الخلق في سبيل التنظيم الاقتصادي •**

الاسلام لاينكر ذاتية الفرد ، ولا ينكر حقه في التملك ، ولا يغفل غرائزه المختلفة التي تحركه في الحياة ولكنه الى جوار ذلك ، ينكر على الجماعة أن تبلغ من حماية الذاتية الفردية حدا يزيد القوى قوة ، والضعيف ضعفا ، فتكون بذلك سببا في تداعي الجوانب السامية في نفس الانسان لا جوانب الايثار والمحبة وما اليها من

عواطف أصيلة فى النفس ، هى قوام الاسرة وهى قوام الجماعة كلها .

فالجماعة الانسانية ـ لكى تنهض الى الكمال ـ يجب أن تكفل للفرد حريته في النشاط الذاتي ، وحقه فى المتاع العادل بثمرات هذا النشاط ، وتحول فى نفس الوقت بينه وبين الضغط على نشاط غيره ، وبينه وبين مالغيره من حق فى ثمرات نشاطه والمتاع بها .

جاء الاسلام محققا لهذا كله ، **فأقر الملك والأسرة والميراث ، واعتبرها نظما أساسية فى الحياة الاجتماعية ، ولكنه قدر ما فى قيام الملكية الكبيرة واستمرارها من خطر الطغيان من جانب الأغنياء والشعور بالظلم الناشىء عن تفاوت الحظوظ المادية من جانب الفقراء فعمل للحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتي ، ولذا حرم الربا وجعل الميراث وسيلة فعالة لتجزئة الملكية الكبيرة ، ليطمئن المجتمع على نفوس أفراده من الحقد ، الناتج عن تفاوت الأرزاق تفاوتا ظالما .**

لقد وضع الاسلام الانسان ـ فردا أو جماعة ـ داخل اطار رسمه هو ـ يضمن سلامة المزاج بين الفرد والمجتمع ـ ثم أعطاه الحرية ليكيف وجوده وكيانه فى هذه الحدود .

# مبادئ الاقتصاد الإسلامي

لم يقدم الاسلام ـ كما سبق الاشارة اليه ـ في الاقتصاد مبادىء مستقلة تقوم بذاتها دون سائر جهات الحياة الاخرى ـ كما تصنع النظم الوضعية ـ وأطلق عليها هذه التسمية • **ولكنه نظر الى الحياة نظرة واقعية ، على أنها تتكامل وتتساند ، فلا استقلال لجانب دون آخر ، وانما تعتمد جهاتها كل على الأخرى ، وتقوم جوانبها المادية المحسوسة على جوانبها الروحية ، ولذا وردت مبادئه الاقتصادية ممتزجة بمبادىء أخرى ، قد تكون أخلاقية أو اجتماعية أو تربوية •**

**والاسلام مع هذا لم ينظر الى الناحية الاقتصادية نظرة سطحية عابرة ، وانما نجده تعمق المشكلة ـ شانه في كل تنظيم ـ وغاص وراءها يبحث عن سرها ـ وينقب عن حقيقة جذورها • وفي كتاب الله وصحيح السنة نجد تلك المبادىء المتكاملة ، المبنية على الاسس الواقعية الفطرية ، منشورة هنا وهناك ـ متبعا في ذلك أرقى النظم التربويه** ـ حتى تتشربها النفس ، وتبرز في صورة سلوك لا أن تكون قواعد محفوظة ، لم تصل الى أغوار النفس ، الأمر الذي يصعب معه التطبيق الا بقوة القهر والسلطان •

لقد جعل الأمر في التملك مبنيا على الاباحة ، يتساوى فيه الجميع ، ثم استثنى أمورا ـ الضرر في اقترافها محقق بالفرد والجماعة ـ أوجب البعد عنها ، تاركا للمجتمع تنظيم حياته في حدود هذه الخطوط ، حسب ماتمليه البيئة والظروف الزمانية والمكانية ، واثقا من أن ذلك لن يغير من النتيجة المنشودة ، ما دام التطبيق في حدوده المرسومة •

والمتتبع لكتاب الله ، وصحيح السنة يجد منهج الاسلام في الاقتصاد يسير في خطوط يقوم بعضها على بعض ، يمكن اجمالها في النقاط التالية :

### ١ ـ تقويم العقل الانساني :

والصلة بين العقل والاقتصاد صلة قوية ، فالعقل الانساني معيار سليم يجب أن يستغله الانسان ، ولا يتركه طاقة معطلة ، **« ان في السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »**

ويظل القرآن يكرر هذا مرات ومرات في سوره المختلفة ، ليوجه الانسان الى التدبر والتأمل ، فينظم العلاقة بينه وبين عالمه هذا كيما يبدأ في خط سيره الجديد من نقطة البدء ، دون تشويش أو تشويه .

### ٢ ـ الايمان بالله ضروري للانسان :

فالانسان اذا ما نظر فأمعن النظر ، وفكر فدقق الفكر ، وصل من النظر والتفكير الى يقين بالله ، ثم هو كلما أمعن النظر ، وأطال التأمل والتدبر ، وحاول الاحاطة بالزمان والمكان ، وما تشتمله وحدتهما التي لانهاية لها من عوالم دائمة المور ، شعر بنفسه ذرة من هذه العوالم تجري كلها على سنن ثابتة تمسكها ، والى غاية عند بارئها علمها ، فلا يعرف لغير الله خضوعا ولا اذعانا ، ولا يخاف في الحياة فقرا ولا مذلة ، يسير في الحياة هادىء النفس عزيزها .. **« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »**

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » •

**٣ ـ احترام الملكية الفردية :**

١ ـ فيقرها ويعترف بها « **الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم،** فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وأرزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا** » • والآيات التى تتحدث عن ذلك كثيرة تضيق بها صفحات بحثنا هذا •

٢ ـ **محاربة تفاوت الفرص فى التملك** ، فلا تفاضل بسبب المولد أو الجنس أو اللون أو الثراء ، وانما الكل سواء لايرفع هذا على ذاك سوى عمله ، **وأن ليس للانسان الا ما سعى**» « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم انه عليم خبير** »

٣ ـ **تحديد وسائل الحصول على الملكية ، فالحصول على المال ليس غرضا وانما هو وسيلة للاستقرار والسعادة** ، ملاحظا الأصل الثابت فى التملك ـ وهو الاباحة والحرية الخالية من العدوان ، فيحرم على الفرد انتهاج وسيلة عدوانية فى سبيل حصوله على الملكية ، ثم يترك له الحرية بعد ذلك « **قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون** ، « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى**

**بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »**

وفى سبيل ذلك نجده :

**( ا ) يحرم على الفرد الحصول على المال بطريق المقــامرة ،** لما فيها من عدوان على مال الآخرين بدون مقابل ، ولما فيه من عدوان على مايملك الشخص نفسه من طاقة تعطل ، ولما فيه كذلك من عدوان على حــق المجتمع ازاء الفرد . يتطلب منه عملا انتاجيا يساعد فى نهوضه وتقدمه **« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضــاء فى الخمــر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »**

**(ب) ويحرم عليه التنمية بطريق التعامل الربوى** ، لما فيه من علو فى رفع قيمة رأس المال وتشجيع على بطالة من يملكون المال ، واثارة أحقاد المستغلين من ذوى الحاجات ، الأمر الذى لايضمن معه استقرار الجماعة ، ولا أمن الفرد واطمئنانه **« الذين يأكلــون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الــربا** فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئــك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » «وما أوتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فــلا يربو عنـــد الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

**(ج) ويحرم عليه التنمية بطريق النهب واســتغلال ضعف الآخرين « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » « يا أيها الذين**

**آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض** منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما »

**«ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » « ان الله يامركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها** واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا » •

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » •

٤ ــ **تنظيم العلاقة بين العامل وصاحب العمل** ، فيقيمها على أساس تبادل المنفعة والمساواة الذاتية بينهما ، « أهم يقسمون رحمة ربك **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** »

ويقول عليه الصلاة والسلام : « **المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه** » • وبهذا يرفع من ذاتية العامل ويجعل نظرة صاحب العمل الى العامل نظرة خالية من الاستغلال أو الاحتكار اذ كل يقدم مايستطيع ليحصل على مايريد ، وعليه فالعلاقة بينهما يسودها التعاون المنبثق من قوله صلى الله عليه وسلم : « **لاضرر ولا ضرار** » •

٥ ــ **محاربة استبداد حب التملك بالفرد** مما يدفعه الى أن يشق على نفسه ، ويبذل مافوق طاقته ليحصل حاجاته ، فالتملك ليس غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة تعاون الانسان فى الوصول الى سعادته واطمئنانه ــ ولذا تكررت فى سور القرآن الآيات التى

تشير الى أن الرزق والثراء متعلق ـ كأى شىء ـ بارادة الله وتقديره ولا قيمة لأية قوة أخرى ـ مستقلة عن قوة الله ـ فى زيادة أو نقص ماحدد لكل انسان « **أمن هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه** بل لجوا فى عتو ونفور أفمن يمشى مكبا على وجه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » ولقد رسم صلى الله عليه وسلم صورة هذا الفرد الذى استبدت به رغباته أوضح تصوير : « **ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى** » .

ولكى يكون عمليا فى ذلك كفل للفرد سد حاجاته اذا لم تستطع ذلك طاقته الفردية الخاصة فأوجب على المجتمع رعايته، وجعل له نصيبا من بيت المال « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** » .

٦ ـ **تحديد طرق الاستمتاع بما يملك** ، وهو تحديد ليس فيه حد من حرية الفرد ، وانما هو حاجز يحول بين الفرد وبين الاندماج فى المتعة بما ينسيه الآخرين الذين يعيشون معه ، فيعتدى على حقوقهم ، ولذا نجده يضرب حوله سياجا من المحظورات التى قد يبعده اقترافها عن الطريق السوى ـ جاعلا الاصل فى الاستمتاع الاباحة كذلك .. « **ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين** » « **ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا أن الله لايحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون** » .

والقرآن لايكتفى بهذه النداءات التى تدعو الى التوسط فى الاستمتاع ، وانما يتوعد من ينحرف عن هذا الطريق بالخسران والضلال « **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله** قد ضلوا وماكانوا مهتدين وهو الذى أنشأ

جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه **كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا** انه لايحب المسرفين ومن الأنعام حمولة وفرشا **كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان** انه لكم عدو مبين ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آذكرين حرم أم اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين** » .

٧ ـ **تنمية روح الجماعة** فى الفرد فيوجب عليه نسبة محدودة من المال مساهمة فى سد حاجات المعوزين ، وهى فى نفس الوقت تستل الضغائن والأحقاد من نفوس الفقراء على الاغنياء ، وذلك تحقيقا للهدف الذى يسعى اليه الاسلام من أمن واستقرار « **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** » « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » .

**٨ ـ اطمئنان الفرد على ماله والمحافظة عليه وصيانته :**

( أ ) **من النهب والسرقة** ، بسن العقوبات الرادعة « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** » .

« **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** » .

(ب) **من الاحتيال** بالنهي عن الاستمتاع بمالالآخرين بدون حق « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون** » ٠

(ج) **من نفسه** بالنهي عن المبالغة في استهلاكه حتى ولو كانت المبالغة في أوجه الخير « **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين** » « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل **ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين** وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ٠٠ « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » ٠

**٩ ـ اثارة دافع التملك في الفرد خشية أن يخبو** ـ متأثرا باندفاع النفس ، نحو الجانب الروحي أو بقسوة الحياة ومشقاتها ـ فيجعل ماله من بعده لذريته وأهله ، وبذا لايقف الفرد في سعيه عند حد الاكتفاء الذاتي ٠ ولتحقيق هذا سن قانون المواريث «**للرجال** نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك **الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا واذا حضر** القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم **قولا معروفا** ٠

**٤ ـ احترام الكيان الجماعي :**

معتمدا على الترابط الأسري ـ والأسرة أساس المجتمع ـ بين الأفراد ، بتبادل الحقوق والواجبات من تربية وكفالة وانفاق ورعاية « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم** ان الله لايحب من كان مختالا فخورا »

الــذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، **وعلى المــولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** لا تكلف نفس الا وسعها لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده **وعلى الوارث مثل ذلك ...** » « **وقضى ربك ألا** تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا **اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »**
والقرآن لا يكتفى بهذه النداءات صيانة للأسرة التى يقوم عليها بناء المجتمع ، ولكنه يعمل على المحافظة عليه وصيانته من :

**( ا ) تضخم الثروات : فسن قانون الميراث الذى يعمل عــلى تفتيت الثروات الكبيرة مما يكفل للمجتمع السلامة من طغيان هــذا التضخم المالى وتداوله فى أسرة واحدة مما يسىء اليه فى افــراده وأخلاقه ونظمه ومثله .**

(ب) **ومن سيطرة الذاتية على أعضائه** مما يخل بتناسقه وترابطه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخــوانكم وأزواجكم وعشــيرتكم **وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » « انفروا خفافا وثقــالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .**
ولما كان سر جموح الفرد أو الأسرة وبعده عن الطريق الجادة ، هو سيطرة حب المال عليه ، الأمر الذى يجعله غاية لاوسيلة ــ قــرر الاسلام فى كثير من آياته أن المال ليس هو وسيلة الاستقرار والأمن والواقع بجواره يقرره « **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم** انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » « ان قارون

كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين، **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لايحب المفسدين** ، قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون » « **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا** زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » .

**(جـ) ومن سيطرة المادية وضياع المثل** ــ الأمر الكفيل بتحطيم أقوى المجتمعات وانهيارها ــ فيقدم العون لمحدودى الدخل بما يرفع من معنوياتهم ، ويطمئن الآخرين على حياتهم من الضياع اذا فاجأهم المرض « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام** الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ثم يدفع الأفراد ــ بالوعود الخلابة ــ الى مد يد المعونة الى اخوانهم فى صورة قرض ، تحوطه المثل السامية الخالية من الفائدة المادية محتسبا ذلك عند الله « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » .

والاسلام فى احترامه للكيان الجماعى لايكتفى بالمحافظة عليه من عدوان الفرد فحسب ، بل يقدمه على الفرد عند التعارض ،

فضياع مصلحة فرد أهون من ضياع مصلحة المجموع ما دام لا يمكن تحقيق مصلحتيهما معا ولذا نجده :

( ا ) يجعل الفرد وما يملك في خدمة الجماعة ، فيغريه تارة بالتضحيه في سبيله « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله • فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » •

ويتوعده أخرى اذا لم ينفع معه الاغراء « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » •

(ب) يجعل المرافق العامة ملكا مشاعا تنظمه الجماعة بواسطة حكامها تنظيما يكفل للجميع المساواه في الانتفاع بها « هـــو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون » « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » • الله الذى ســـخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » •

# شبهات

مع وضوح هذه الحقائق فى التشريع الاســـلامى ، وامكان تطبيقها بسهولة ويسر يحققان الهدف المنشود من وراء النظـــريات والقوانين ، مع كل هذا لم يسلم نظام الاقتصاد الاســـلامى من طعن مأفون جاهل ، أو مؤاخذ متعصب أعماه تعصبه عن الحقيقة ، فـلم يبحث وسار فى تيار الخصومة القديمة يكيل المطاعن فى وجه نظام الاسلام الاقتصادى شأنه فى ذلك شأن جميع نظم الاسلام الأخـرى المنبثقة عن نظرته الى الفرد والجماعة والحياة • واســـتكمالا لبحثنا هذا كان من الضرورى أن نعرض طرفا من هذه المطاعن والمآخذ التى يحاولون الصاقها به على مافيها من سذاجة وتفاهة يبـــدوان لأول وهلة •

١ ـ يأخذون على النظام الاسلامى فى الاقتصاد اعتماده عـــلى الأمور الروحية المغيبة وجعلها الأساس الذى ينهض عليه ، ويقولون أن الاسلام بهذا انما يخدر الطبقة العاملة كماهو حال كافة الأديان•

**والحقيقة التى لامراء فيها ولا جدال أن الاسلام لم يكن فى يوم من الايام مخدرا وانما كان أبدا ثورة هادفـــه فى كل خطـــواته ، والناظر فى مبادئه آنفة الذكر ـ على ايجازها ـ يتبين مدى الحرارة والقوة التى يدفعها بروحانيته وماديته فى نفوس تابعيه ، وبهـــذا يتحقق التوازن الذى تفقده سائر النظم الأخرى ، ويأمن الفـــراغ الذى ينشأ عن تقييم أحد الجانبين** ـ الروح والمادة ـ والانحراف نحوه **دون الآخر** ، وليس أدل على ذلك من الواقع الملموس الآن فى عالمنا من فراغ فى نفوس الشعوب دفع الكثير منهم الى تصرفات شاذة •

وترك الباقين فى حيرة واضطراب ، سواء فى ذلك العالم الرأسمالى أو العالم الشيوعى ، **وانه فى اليوم الذى يصبح فيه قانون الأمة دينا** تؤمن به فلن تهدر كرامته ، يقول الفيلسوف « بنتام » « **متى صارت الأمة من حزب القانون ، قل أمل المجرمين فى الهرب من العقاب** » وهى قاعدة نفسية يقرها الخبيرون بنفسيات الشعوب والمشتغلون بالتشريع •

**٢ ـ يقولون ان آيات القرآن صريحة فى أن مالك الأشياء هو الله ، وعليه فليس هناك ملكية فردية خاصة** ، والا فهو التناقض ، أليس القرآن هو الذى يقول : « **لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير** » وأمثلة ذلك فى القرآن كثيرة •

والحق أننا لاننكر ملكية الله عز شأنه لكل شيء ، ولكن الاعتماد على هذه النظرية للكون لاستنتاج أن الاسلام لايبيح الملكية الخاصة لايخلو من الخطأ •

يشترك الاسلام مع سائر الاديان السماوية فى هذه النظرة الشاملة للكون القائمة على اعتباره من صنع الله الذى يملك كل شيء فيه، وهى نظرة فلسفية لا يمكن أن نستنتج منها الغاء ملكية الأرض الخاصة ، **وهذه النظرية توضح ماهية الكون وعلاقته بالله ، ولا تحدد العلاقات الاقتصادية بين الأفراد على الأرض** •

ان الاسلام بهذه النظرة يضع قضية الملكية فى اطار فكرى عام ، مختلف عن نظرة الحق الطبيعى التى يتشدق بها الرأسمالى فى تأكيد سيطرته على مايملك ، فالله بهذه النظرة الاسلامية يمثل الحق المطلق والعدالة التامة ، وهو القوة التى تسيطر على الكون وتسيره ، فان كان الأمر كذلك ، فلا يعقل أن يكون جائزا بعرف الاسلام اطلاقا اطلاق يد المالك بالتصرف فى أرضه بغض النظر عن مصلحة الآخرين •

الاسلام ( بنظريته الشاملة للكون ) قد ربط قضية الملكية ـ نظريا ، ومن طرف خفي ـ بقانون أخلاقي أعلا. فنظرته الشاملة للكون أخلاقية بأساسها ، أي انها تقول بوجود قوة حق وخير وراء العالم ، وهذه النظرة وان كانت لاتنفي حق التملك ، ولا تنظم تفاصيله تضع ـ بشكل نظري على الأقل ـ حدودا عامة للتصرف .

**٣ ـ يأخذون عليه منهجه التشريعي ، حيث يشير الى كثير من أحكامه باجمال دون تفصيل أو تحديد .**

والحق أن هذا ليس مأخذا ، وانما هو مفخرة من مفاخره ، ودليل من أدلة اعجازه والا لما صح أن يكون نظاما صالحا لكل زمان ومكان .

**ان الله لم يخلق الانسان ليكبله بالقيود كما يتصور هؤلاء المشرعون كما انه لم يسن هذه المبادىء والنظريات لتحفظ في المتاحف وانما أوجده وأوجد الحياة من أجله ليحياها .. فهي كلها مباحة له باستثناء أمور تودي به الى هاوية الفرقة والانحراف ، جعل مهمة التشريع الحيلولة بينه وبين هذه المستثنيات ، ولذا جاءت نظمه عامة مجملة ، أما تفصيلها وتفسيرها فهذا متروك للبيئة والزمان يحددانه ويكيفانه حسب حاجات الحياة وفي حدود تلك القوانين العامة المجملة ، فلا تصادم طبيعة ولا عقلا ، ولا تقف عائقا في سبيل التقدم والنهوض ، لا سيما وأنه يؤمن بالتطور والتقدم والرقي .**

**٤ ـ ويقول آخرون : ان نظاما لم يدم بعد رائده الا فترة وجيزة ، ثم حدث فيه ما حدث من تغيير وتبديل ، لا يعتبر بحق نظاما دائما ، ولا يمكن العودة اليه .**

كلام منمق يوحي ظاهره بالقوة ، وان كانت الحقيقة غير ذلك ، يشهد بها التاريخ ويؤكدها فانه ماكادت المقادير تسوق الى المسلمين

خليفة فيه بقيه من روح الخلافة ، ووعي المسلم ، حتى عاد المد الاسلامي الى الظهور ، وحتى أصبحت الحكومة الاسلامية حقيقة نابضة بعد أن غيبها ستار من الأنانية عن العالم ٠

كان ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز ٠ وهو وان لم يمتد به الزمن مدة يتمكن فيها من تعميق جذور هذه التقاليد في نظام الدولة الا أنه منحنا دليلا قويا على **أن الطاقة الكامنة في الاسلام طاقة حقيقية صالحة للاستخدام في فترات مختلفة متفاوتة فان ما استطاعه ابن عبد العزيز بالأمس يمكن أن نفعله نحن اليوم ٠**

وهذا مالاحظه مستر « جب » وصرح به في كتابه ( حينما يكون الاسلام ) بقوله :

**ولكن الاسلام مازال في قدرته أن يقدم للانسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحا باهرا في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة** فالجامعة الاسلامية العظمى في افريقيا والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان ؛ لتبين كلها أن الاسلام مازالت له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الاجناس والطبقات فاذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع » ٠

**٥ ـ ثم يأتي بعد ذلك أكبر مأخذ يأخذه الرأسماليون على النظام الاقتصادي الاسلامي وهو تحريم « الربا » والتعامل به ،** فيقولون : « **ان تحريم الفوائد يعوق سير الأعمال والصفقات التجارية كما يعوق تنفيذ المشروعات الأهلية الهامة ٠**

**ولنفرض ( جدلا ) أنه يعوقهما حقا ؛ فهو يعوض هذا أحسن**

**تعويض ، اذ يمنع الحروب في العالم ، تلك الحروب التي لاتجلب للجنس البشرى غير الشقاء ، ولا يؤكدها ويشعل أوارها غيـــر القروض والديون الربوية •**

والآن فلنتصفح التـــاريخ ملمسين الحقائق فى عصر صدر الاسلام ، حيث سارت التجارة فيـــه سيرها الطبيعى ، وانتشرت أوسع انتشار ، كما ازدهرت المشاريع الاهلية الهامة ، وعمت الحدود الشاسعة فى دول صدر الاسلام ، ابان عصورها الاولى ، مما جعل هذه الدول فى طليعة الدول العظمى المتسابقة فى سباق المدنية العالمية ولكن مع كل هذا لن نجد أثرا لهذا النوع من التعامل الذى حرمه الاسلام •

ان هذا التحريم حقيقة لا يتلاءم مع ظروف العالم الجديد الذى جاءت به مدنية الغرب المادية ، ولكن النظام الامثل الذى وضعه الاسلام نصب عينيه نظام عملى نجح تطبيقه عمليا ( كما قلنا ) قرونا عدة فى صدر الاسلام ، فربح رءوس الاموال التى لا تسير الاعمال الا بها يختلف عن الديون العادية قليلا ، فهو فى الواقع حالة يشترك فيها العمل ورأس المال . وهذه المشاركة غير محظـــورة ، **فان النظـــام الاجتماعى الاسلامى يقول : ــ ان راس المال والعمل يجب أن يشتركا معا فى الربح وفى الخسارة ، فان معنى دفع فائدة ثابتة هو أن رأس المال يربح دائما ، حتى ولو كان العمل لا يؤدى الا الى الخسارة •**

**هذا ويعترض أحيانا بان اشتراك العمل وراس المال فى الغنم وفى** الغرم غير عملى اذ يحتاج دائما الى امســـاك دفاتر ، بيد أن امساك الدفاتر ضرورة من ضرورات التجارة ، اذ الحسابات التجارية فضلا عن ذلك ــ يجب أن يعنى بها لتقدير الضرائب ودفعها ، وان جميع الشركات المساهمة التى تقوم بالمتاجرة على نطاق واسع تمسك دفاتر وهذا النظام أنفع للصالح العام من نظام اضافة الفوائد الى رأس المال،

ذلك النظام الذى يكثر من شرور الرأسمالية ، وهو عن الظلم للعمل، والقروض التى تعقدها الحكومات أو الشركات لتنفيذ المشروعات الكبيرة ، كمد السكك الحديدية وحفر الترع وغيرها قد تتبع نفس الأساس .

وإذا ما قام نظام البنوك العام على أسس تعاونية يفرها نظام الاسلام الاجتماعى كان نعمة عظمى للبشرية .

**ولو فرضنا ان الدولة سنت تشريعا يلغى فوائد المال فى البنوك والشركات والمشروعات العامة والاستقراضات الشخصية ، فما الذى يقع حينذاك ؟**

يقع أن أصحاب رءوس الاموال لا يجدون أمامهم لتنمية أموالهم الا طريقين عامين :ـ

١ ـ أن يستثمروها بأنفسهم فى الصناعة أو التجارة أو الزراعة .

**٢ ـ ان يستثمروها بطريق التعاون فى شركات مساهمة تربح اسهما أو تخسر .**

**وكلا الطريقين يقرهما الاسلام ، ولا تخسر بهما الحياة الاقتصادية شيئا ، ولكن قد يخشى أن يحجم المولون عن ايداع اموالهم فى البنوك، وهذه البنوك هى التى تمول المشروعات الضخمة فى الغالب .**

**وهذا خطر وهمى ، نراه لاننا لا نرى الا الطرق الاوربية فى استخدام المال ، فهناك اولا الميل الفطرى الى تنمية المال ، وهو لا ينمو الا باستغلاله على وجه من الوجوه ، وهذا الميل الفطرى ، ضمان لعدم حبس رأس المال** ، فاذا كنا حريصين على أن نخلق مشروعات ضخمة تحقيقا لما يسمى «الانتاج الكبير» ، ففى وسعنا أن

نسن تشريعـــات لبعض أنواع الصناعات الضخمة نحتم فيها ألا يرخص باقامة مشروع منها برأسمال حده الادنى كذا ... عندئذ تتجمع رءوس الاموال بالمساهمة . وتخضع لحساب الربح والخسارة، فلا تبقى حاجة الى بنوك الاصدار . فاذا شـــاءت البنوك الاخرى أن تربح فعليها أن تساهم بأموالها وأموال المودعين ( بعلمهم ورضاهم ) في مشروعات استغلالية تخضع للربح والخسارة ، فالفوائدالمضمونة ربا لا شك فيه . ولن يمنع هـذا تدفق رءوس الاموال الاهليـــة والاجنبية لان معظم رءوس الاموال لا يودع في البنوك انما يستغل في المشروعات . أما شركات **التأمين ، فيمكن أن تصبـح مؤسسات اسلامية ، بأن تصبح الاموال المودعة بها قابلة للربح والخســـــارة والنقص والزيادة ، فتشغل هي رءوس الاموال المودعة بها في مشروعات استغلالية تحت الربح والخسارة ، وتدفع لكل مؤمن فيها مبلغا يزيد على مادفعه أو ينقص ، وتخصم من المودعين مقدار ما خسره بحسب نسبة أموالهم ، وبذلك يصبح المؤمنون جماعة تعاونية ، يدفعون من مالهم كله للمنكوب منهم عند نكبته ، وينالون جميعا نوعا من الامان ينتفعون به عند الضرورة والحاجة ، ويطبق هذا على صناديق التوفير وما اليها ، فتستحيل جميعها مؤسسات تعاونية ، تستغل أموالها في مشروعات منتجة قابلة للربح والخسارة ، وليس لها فائدة ثابتة.**

**وبذلك ينجو نظامنا الاقتصادي من وصمة الربا ، وتضطر جميع رءوس الاموال للعمل المنتج طلبا للربح والنمو .**

# خاتمـــة

من هذا العرض - على اجماله - يتضح لنا بجلاء مدى اخفاق الرأسمالية كنظام اقتصادى يعنى بحاجات مجتمع بأسره ، لا يرفع طبقة على حساب أخرى .

كما يتضح أيضا مدى اخفاقه - على فرض صلاحيته - فى تكوين الرأسمالى الصالح ، الذى يضحى بكل شىء فى سبيل تطبيقه ، وانما كان نارا أججت ما فى النفوس من أنانية كامنة ، فنمت وبدت مسلحة بنظم وقوانين تحميها من كل سوء ، فسيطرت الاحقاد على النفوس واصبح أمن الناس وهدوؤهم خوفا واضطرابا .

الامر الذى دعا بعض من استشعروا مرارة الحياة فى ظـــلال الرأسمالية القائمة ، فقدموا للبشرية نظاما مضادا لهذا النظـــام ، يبغض كل شىء يعزى الى الرأسماليـــة ، وهـــذا بطبيعة الحال غلو الثورات ، فكانت الشـــيوعية وما تولد عنها من افكار ، حادت عن الجادة - كما وضح لنا آنفا - فقد وقعت فى نفس الاخطـــاء التى كادت تقضى على الرأسمالية .

لقد اتضح لنا أنها نقدت الرأسمالية فى كل نظمها ، ولكنهـــا لكى تقدم لنا نظاما آخر ، قدمته نظاما نظريا أكثر منه عمليـــا ، وحينما يسر لها أمر تطبيقه صدمت بالواقع الذى لم تعد له عدته وحاولت التخلص من ذلك ، فلم تجد بـــدا من التقهقر الى الخلف ، وحيث تقبع الرأسمالية ، لتستعير من نظمها فى سكون اللص .

اما ما يبدو فى كلا الجانبين من نهضة وتقدم ، فلا علاقة له بتلك النظم الاقتصادية المتطرفة التى يدين بها كل منهما ، الا اذا جعلنا الاقتصاد هدفا لذاته ، لا وسيلة لرفاهية الشـــعب واسعاده ، وانى لهما ذلك فى ظلال هذا التطرف المادى الاعمى .

ان نظاما يجعل الحياة الاقتصادية ـ بشقيها الرأسمالي والشيوعي ـ أساسه ، ويبني قواعد الخلق على أسسها ، ولا يقيم للعقيدة وزنا في الحياة العامة ، مثل هذا النظام قاصر عن أن يمهد للانسانية سبيل سعادتها المنشودة ٠

ان هذا النظام لجدير أن يجر على الانسانية ما تعانيه من ويلات ومحن في هذه العصور الاخيرة ، جدير أن يجعل كل تفكير في منع الحرب وتوطيد أركان السلام العالمي أمرا قليل الجدوى عديم الثمرات٠

فما دامت العلاقات الفردية والجماعية علاقات رغيف يؤكل وقرش ينفق وسلطة تفرض فسيظل كل فرد يتحين الفرص للانقضاض على الآخر ، وستظل كل جماعة تترقب الفرص التي تتمكن فيها من انتزاع ما بيد الأخرى ، والتخلص من وجودها ، وسيظل كل منا ينظر الى الآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه ، وسيظل الاساس الخلقي الكمين في النفس أساسا حيوانيا بحتا ، وان بقي كامنا حتى تظهر الحاجة ، وواقعنا في العالم اليوم خير مصداق لذلك ، فالتنافس والنضال يسودان حضارة العصر يبدوان في الجانب الراسمالي (الفردي) وفي الجانب الشيوعي على السواء ٠

في المذهب الفردي ينافس العامل العامل ، وينافس رب المال رب المال ، والعامل ورب المال فيه خصمان يتنافسان ، وأصحاب هذا المبدأ يعتقدون أن هذا التنافس والنضال يحملان للانسان سبل الخير والسعادة والتقدم ٠

والمذهب الشيوعي يرى في نضال الطوائف نضالا يفنيها جميعا ، حتى يرد الأمر كله للعمال الامر الذي تحتمه الطبيعة وتفرضه ٠

**وهكذا يفرض النظامان على الانسانية حياة مضطربة ، لا استقرار فيها ولا آمن ولا اطمئنان ، وكأن انسان هذا العصر قد ارتد الى حياة الغاب والتوحش والتوجس ، السلام فيها حلم ، لاسبيل الى تحققه ، وأمنية معسولة ولكنها سراب كذوب ٠**

بينما نجد الاسلام بنظرياته يقف فى الوسط ، فلم تكن نظـرته للاقتصاد بالنظرة العجلى الخاطفة ، ولا هى بالنظرة الشريرة الانانية وانما هى نظرة عليا من بارىء الكون وخالقه ، فكانت فلسفة عجزت عن مجاراتها عقول الفلاسفة ، وانى لعقل المخلوق من العقل الخالق .

لقد كانت نظرة فاحصة ممحصة ، اشتملت على مقدمات لا تنتج الا سعادة المجتمع وخيره لم تحاب فئة على حساب أخرى ، فلم يؤدبه الحنق على الاغنياء الى درجة تجريدهم من حق سبق أن حباهم اياه ، ولم تصل رحمته بالفقراء الى درجة وضع الاشياء فى غير موضعهـا وانما جاء نظريات علمية قائمة على أسس سليمة تعمل لصالح الجميع ومن أجل الجميع فكان نبراسا أضاء الطريق أمام طوائف الأمـة المتعددة ، وأخذ بيد كل فريق فأسلمه الى الطريق الموصلة الى خيره وخير الجماعة ، بعد أن غرس فى نفوسهم كل معانى الخير والسعـادة « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »

لقد اتضح لنا من تلك النظرة العجلى التى ألقيناها على نظـرية الاسلام الاقتصادية أنه النظام الفريد بحق ، الذى يستطيع أن يقود الامة الى الرقى والسعادة « ذلك الدين القيم ولكن أكثر النـاس لايعلمون »

كما اتضح بجلاء أنه وحدة متماسكةمتكاملة ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، فلا يمكن الاخذ ببعض وترك البعض الآخر على أنه النظرية الاسلامية ، وانما هو كل لا يتجزأ « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . »

وبعد . فهذه هى الحقائق العلمية ــ النظرية والتطبيقية ــ المجردة تؤكد أحقية الاسلام ونظامه الاقتصادى ، لأن يسود وترفرف رايته فى تلك الفترة العصيبة من أيامنا هذه « فيه شفاء للنـاس وهدى ورحمة . »

وبجانب هذه الحقائق العلمية تقف قوانين الطبيعة لترشحه لذلك المنصب الخطير فقد سادت الرأسمالية ، ولكن الشعوب أخذت تتحول عنها حين وقفت على حقيقتها وما يكمن في ثناياها ، وفي تلك اللحظة فتحت الشيوعية ذراعيها تتلقف تلك الجموع المتدفقة المتحمسة ضد الرأسمالية ، وعملت على ارضاء رغباتهم ، فكان قضاء عليها •

لقد كان اكتشاف الشعوب لسرابها الخادع أسرع من سالفها ( الرأسمالية ) :

يقول « وليم فولكنز » :ـ « ستختفي الرأسمالية والشيوعية ذات يوم ، وتبقى الانسانية • » بل ان الشيوعيين أنفسهم ليحسون هذا الاحساس ، يوضح ذلك موقفهم المريب وعداوتهم المتكررة للاسلام والمسلمين •

ان الشيوعية تعادى الاسلام معاداة الخوف من منافسته في تنظيم المجتمع على قواعده وأحكامه ، وتعاديه معاداة الحاكم الروسي للمحكوم المطموع في ماله واستقلاله ، وتعاديه اخيرا معاداة الشعور بالخطر والافلاس على اثر اخفاق التجارب الماركسية واحدة بعد الاخرى خلال السنوات الاخيرة ، فقد اعترفت الدولة على كره بحق الملك والتوريث واعترفت بالفوارق بين الاجور وأحوال المعيشة ، واعترفت بفصل الجنسين في معاهد التعليم واعترفت بالاسرة ومواثيقها ، وبالوطنية وقوتها الفعالة في الدفاع عن الأمة والارتفاع الى مطامعها العليا •

ان الشيوعيين يشعرون اليوم بتقدم الاسلام وتقهقر المادية الماركسية ، ويعتقدون تماما ان النزاع المقبل انما هو نزاع بين ما يسمونه «الايدلوجي الماركسي والايدلوجي الاسلامي» أما الديمقراطية فلا محل لها في هذا النزاع ، لانها ليست دينا ينازع الشيوعية في ميدانه ، انما هي دعوة سلبية فقط ، تمنع سوء الحكم، وتمنع الحجر وتمنع

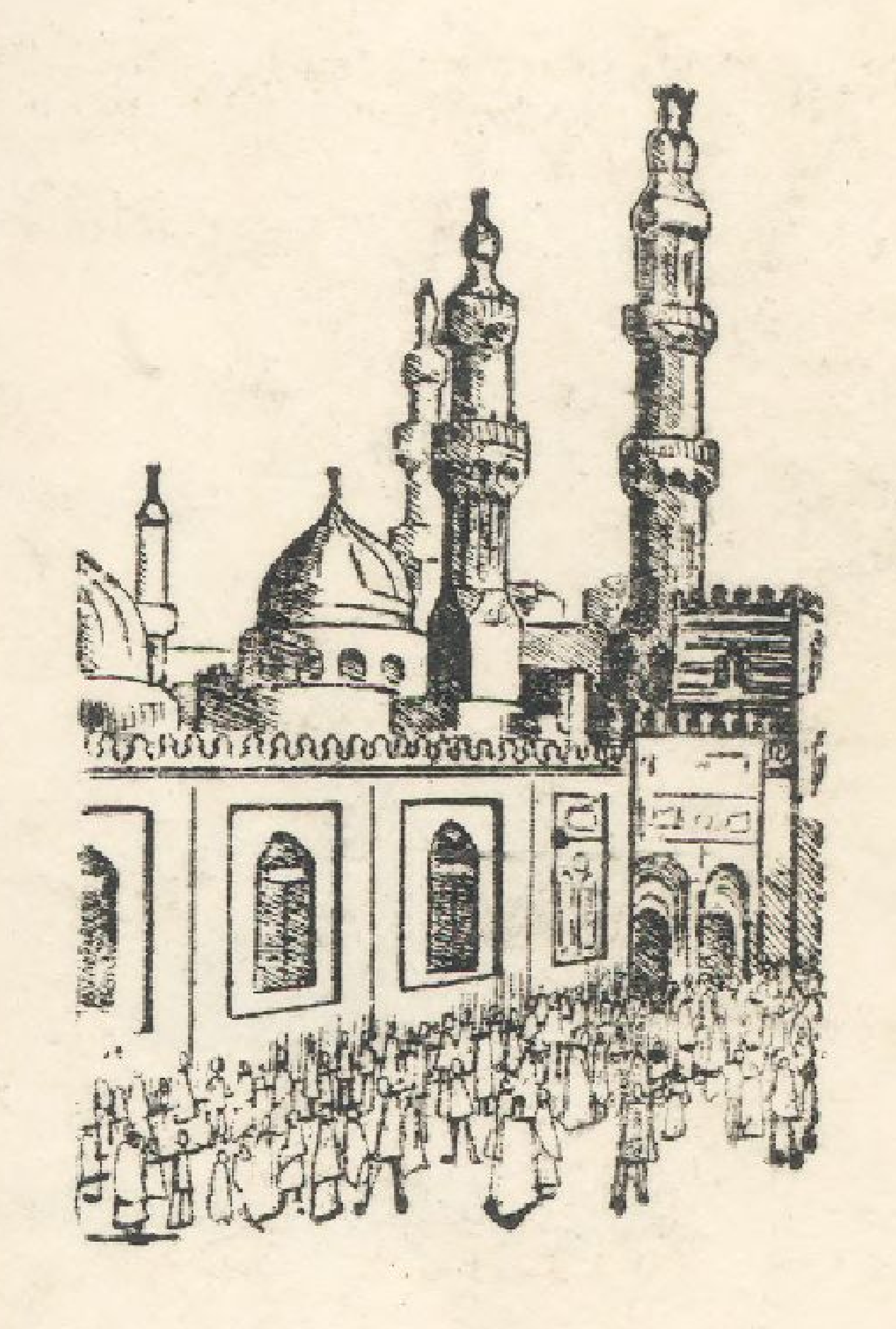
القيود الجائرة في تقسيم الاعمال والارزاق، أما العمل الايجابي فلم يكن من مهام الديمقراطية في عصر من العصور ، ولهذا تجد الشيوعية نفسها وجها لوجه مع خصم قوى ليس من اليسير التغلب عليه وهو الاسلام الذى لا ينازع أحد في كون التطبيق الايجابي من رسالته ، وفي هذا الزمن على الخصوص لأنه زمن يتقدم فيه المسلمون ويتعلمون فيه كيف يطبقون الاصلاح الاجتماعي موفقا بين مطالب المادة ومطالب الروح ومقتضيات العلم الحديث ـ كما سبق توضيحه ـ يقول في ذلك ( ول ديورانت ) الأمريكي في كتابه قصة الحضارة : ـ « ويلوح أن الثغرة التي لابد من وجودها بين النظريات المجردة والافعال الواقعية كانت أضيق في الاسلام منها في سائر الاديان » .

هذا النزاع الذى يؤمن به الشيوعيون ويعدون له العدة ، نزاع لا هوادة فيه ؛ فان الشيوعيين لا يبغضون بين أمم الشرق الآسيوى نفوذا روحيا أو فكريا أخطر عليهم من نفوذ الاسلام انها حرب حياة أو موت يعد لها الشيوعيون كل ما يستطيعونه من امكانيات، وليست هذه أول حرب ضد الاسلام ، لقد واجهها كثيرا وكثيرا جدا وقد عاش الاسلام وماتت هذه العداوات الكثيرة التي ناصبته الحرب منذ مئات السنين وسيعيش الى أن يرث الله الارض ومن عليها والشيوعية وغيرها في خبر كان .

وهكذا ، وبعد أن ذاق الناس مرارة ما في السوق من سلع ؛ وبعد أن تبين الغس من الثمين ، بدأت الانظار زائغة تبحث عن مأوى وملجأ يحميها ، ولكن الحقائق العلمية ، والقوانين الطبيعية تصرخ فيهم :ـ « أن الدور الآن هو دور المد الاسلامي « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .



دار القاهرة للطباعة







دار القاهرة للطباعة

الثمن ٥